رواية

أحمد فريد

لآلئ الوحل..

الناشر

دار قباء

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

اسم الكتـــاب: لآلئ الوحل

المـــؤلـــف : أحمد فريد

سنة النشـــر : 2007 م

رقـم الإيـــداع : 15968 / 2007

الترقيم الدولى : 0 - 536 - 303 - 977

الناشـــر

دار قـــبـاء

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

E-Mail: modern_qubaa@hotmail.com

الإدارة : (16) عمارات العبور شارع صلاح سالم -
مدينة نصر القاهرة - الدور الثالث

تليـفـاكس: 02/22621365

مـحـمـول : 012/3140315


لآلئ
الوحل..



ليس كل من له بريق .. غال القيمة.

فأغلى الأشياء وأقيمها هى التى تستخرج من باطن الأرض.

ولا زال البحث مستمراً..

أحمد فريد

1

اليوم الأحد.. قد يكون الأربعاء، ربما هو الجمعة.

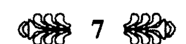
الساعة الثامنة صباحًا.. ربما العاشرة.. قد تكون منتصف النهار.

هكذا ردد فى داخله «شوكت فهمى» أثناء سيره فى اتجاه محل الحياكة الذى يمتلكه فى منطقة حدائق الزيتون.

كان يختلس النظر وراءه بعد كل عدة خطوات يخطوها، وكأنه يستدعى رحلة الستين عامًا التى هى كل عمره.. رآها بخاطره وكأنها كثبان من الرمال الناعمة أو خطوط هلامية من السراب.

ستون عامًا كان حصادها مجرد أفرع من الصبار الجافة والمحترقة من صهد الشمس.. لا تغنى ولا تفيد.. لا شىء غير أحداث فى تاريخه بلا بصمات ولا ذكريات.. إنسان بلا تاريخ. حتى ابنه الوحيد الذى أصبح فى الثلاثين من عمره، لا يرى فيه أملاً.. فكل ما حوله ينبئ بأنه سيواصل نفس رحلته المظلمة وسينتهى به الأمر إلى ما انتهى إليه هو فى هذا العمر المتقدم.

شوكت فهمى الذى كان فيما مضى يزهو بشبابه القوى وقوامه فارع الطول وشعره الأسود والأملس وصدره العريض وصوته



الرخيم، أصبح اليوم بعد هذه الرحلة الطويلة يواسى نفسه بتصور أحمق بأنه قد استطاع أن ينتصر على الزمن الغادر الذى سحقه بين الليالى، وامتص منه كل ما فى كيانه من آمال وطموحات الشباب.

فالزمن أسقطه من حساباته بعد أن فرغ منه وجعله كيان بلا جسد وكأنه هيكل عظمى تخترقه الأشياء دون أن تشعر به.. تمر الأحداث من حوله دون أن تؤثر فيه أو يؤثر فيها.. مجرد هيكل لا يزال محتفظًا بآثار الصورة الآدمية، بتجويف العينين التى لا ترى، والأنف الذى بات ممر للخواء فقط، ومكان لفم بلا شفاه ولا قدرة على التعبير.

هذه الحالة التى وصل إليها جعلته يتوهم أنه انتصر على الزمن الذى تركه وشأنه ولم يعد يتربص به.

انتصار الصبار الذى لا يمثل للطبيعة شيئًا.. فلا الفراشات تحوم حوله لتستفد من رحيقه، ولا الطيور تسعى لالتقاط الحب منه، ولا هو مطمعًا لافتراس الحيوانات البرية له.

لا يملك غير انتظار ما تجود به الطبيعة من نسمة هواء أو قطرة ماء تعينه على البقاء.

و.. توقف أمام دكانه واستغرق فى لحظات قاهرة وهو ينظر إلى الباب الحديدى الذى يذكره بمعاناة كل صباح أثناء محاولته لرفعه إلى أعلى ليبدأ فى ممارسة عمله «كترزى» للسيدات.

وكالعادة استعان بأحد المارة ليساعده فى مهمته الثقيلة.. وانحنى ليلتقط الجريدة اليومية الذى دأب بائع الصحف بأن يقذفها داخل محله كل يوم، ثم استقر وراء المكتب الخشبى فى انتظار أن يتنبه لوجوده صبى المقهى المجاور له ويأتى إليه بكوب الشاى المعتاد.

بدأ يتصفح الجريدة ليتابع المانشتات الكبيرة أولاً كعادته فى القراءة ولكنه فى هذه المرة لم يستطع أن يستكملها بعد ما تسمرت نظرته على صورة وخبر فى صفحة الاجتماعيات.

مجرد صورة.. تزيلتها كلمات تهنئة شعر بأحرفها كالرماح تخترق رأسه لتدمر البقية الباقية من قدرته على التفكير. وكأنه أصيب بلوثة مفاجئة.

راح يردد وكأنه يهذى.

.. مستحيل.

.. أنا فى واقع حقيقى. أم فى لحظة وهم .

.. أمال حلمى.. وكيل أول وزارة مرة واحدة .

.. مستحيل أن يكون تشابهًا فى الأسماء.

و.. دس رأسه داخل الجريدة، حتى كادت عيناه تلامس الصورة ثم عاد يكرر إلى نفسه :

.. نعم إنها هى .. ولكن كيف !!

. أمـال حلمى وكـيل أول وزراة.. وأنا ترزى فى شـارع جـانبى بمنطقة الزيتون.

.. لعنة الله على الزمن .. اللعنة على ..

ولكنه توقف عن الهذيان، عندما دخل إليـه صبى المقـهى وهو يحمل الشاى وقال متطفلاً دون قصد :

- صبـاح الخيـر يا أسطى شوكت .. مـاذا بك اليـوم؟ .. أنت تحـدث نفسك.

التفت إليه والذهول يفترش عينيه .. ثم قال بثورة :

- اغرب عن وجهى الآن وإلا حطمت رأسك.

استدار الصبى هلعًا .. وهو يردد بصوت مسموع :

.. الرجل أصابه الجنون .. مسكين الأسطى شوكت .

وانصرف خارج المحل مسرعًا .

بينما عاد شوكت ثانية للجريدة. وراح يتأمل الصورة وكل نبضه فى كيانه تنتفض بقوة وكأنها تنفجر الواحدة تلو الأخرى.

خمسة وثلاثون عامًا .. تفصل بين آخر لقاء معها فى الماضى وبين صورتها الآن. كان كلما تذكرها يضعها فى صورة مختلفة.

تارة يتـوقـعـهـا قـد أدمنت التـسـول أو النشل. وتارة أخـرى يتصورها إحدى العاهرات وقد سقطت كثيرًا فى أيدى الشرطة.

توقعها ترقد فى أحد مقابر الصدقة. أو عاملة فى المنازل. أو أى شىء آخر.. فكل مؤشرات بداياتها كانت تؤدى إلى ذلك.

ولكن .. أن تصبح وكيل أول وزارة. فذلك هو المستحيل الذى سلب عقله الآن ، ومهَّد له الطريق إلى الجنون .

تلفت حوله فى ارتباك، كأنه يخشى أن يكون أحدًا قد استطاع أن يتابع ما يدور فى ذهنه.. حاول أن ينهض، ولكنه سرعان ما عاد إلى جلسته وراء المكتب.. وضع كفيه فوق وجهه وهو مغمض العينين كما لو كان يستدعى صورتها من ظلمة أعماقه.

وعادت إليه فى صورتها الماضية منذ خمسة وثلاثين عامًا أمال حلمى.. فتاة الخامسة عشرة ربيعًا.. حديث حارة «المكسيكى» وكل الشوارع المحيطة بها فى منطقة إمبابة.

كان جمالها صارخًا.. شقراء الشعر وزرقاء المقلتين وفارعة الطول ودقيقة القوام.. تعيش مع عمتها وزوجها اللذين تولا رعايتها وهى فى سن الرابعة بعد وفاة والديها فى حادث إحدى القطارات. كان ذكاؤها فطريًا وملحوظًا، وفاقت قدرتها على استيعاب العلم وهى فى الابتدائية عن كل أقرانها بما فيهم أبناء عمتها الأغبياء. ولهذا لم تدع لأحد فرصة أن يثنيها عن مواصلة الدراسة بسبب تفوقها فاستمرت بها حتى المراحل الأولية للثانوية العامة، فى الوقت الذى تحول أقربائها إلى عمال فى الورش المجاورة بعد

تركهم الدراسة. كان زوج عمتها يعمل فى أحد مصانع المواسير المعدنية وبالرغم من قسوته الشديدة وتسلطه على الجميع إلا أنه كان شديد الإعجاب بها وبتفوقها ولهذا تركها تواصل دراستها لحين يتقدم إليها أحد شباب المنطقة للزواج منها وعلى أمل أن يستفيد من مهرها كتعويضًا عن إنفاقه طوال السنوات التى مضت وهى تحت رعايته.

و.. انتبه لدخول إحدى السيدات من زبائن محله.

وانتشلته من غفوة ذكرياته .. قائلة :

- السلام عليكم يا أسطى شوكت .. أنا حضرت فى الميعاد حسب الاتفاق.

تململ قليلاً قبل أن يتحرك ، ودون أن يتفوه بكلمة التقط كيس بلاستيك من فوق أحد الأرفف، ثم ناوله لها.. وقال بصعوبة :

- الفستان جاهز .. باقى خمسة جنيهات من حسابه .

وضعت الجنيهات الخمس فوق المكتب الخشبى.. واستدارت منصرفة وهى تقول :

- ربنا يخليك يا رجل يا طيب.

ووقف الرجل الطيب حائرًا فى وسط محله لا يعرف ماذا يريد.. يعود إلى وراء مكتبه، أم يظل واقفًا.. أو يسترجع الصورة فى الجريدة. أو ينصرف.

واستجاب للقرار الأخير.. وأسرع بغلق الدكان قبل أن تقتحم إحداهن المكان وتشغله عن رحلة الذكريات.

سار إلى غير هدى.. وجد نفسه أمام محطة مترو الأنفاق.. استقله دون رغبة، وتركه فى المحطة المؤدية لميدان التحرير.. واصل سيره إلى أن ساقته خطواته إلى كوبرى قصر النيل وتوقف عند منتصفه، مستسلمًا لنظرته إلى سطح المياه الداكنة أسفل الكوبرى وكأنه يخترق أعماق النيل باحثًا عن ماضيه الراقد فيه.

و.. تذكر كيف نزح من بلدته المنوفية بعد حصوله على دبلوم الصنايع إلى القاهرة باحثًا عن عمل.. واستقر به الحال فى ورشة ميكانيكا فى أحد الشوارع الرئيسية بإمبابة، وتذكر كيف كان لقاؤه الأول بأمال حلمى، وكيف استطاع أن يلفت نظرها كلما مرت من أمام ورشته.. كان شابًا فتيًا له ملامح بشوشة وقوام مفتول العضلات.. ويجيد الحديث بكلمات مبهرة تخطف الأسماع.

وخطف كل كيانها ووجدانها. لم يكن يتصور أنها لا زالت فى الخامسة عشرة تخيلها فى مثل عمره وقتذاك عشرين عامًا.

واجتمعا فوق أطلال أحلامهما.. لقاءاتهما كانت تظللها سُحب اليأس والحيرة والأمانى المفقودة.. لا أمل فى الارتباط .. ولا فى الغد.

وفجأة.. طفحت صورة «عثمان بك» على سطح النيل، بدت

مشوهة المعالم وكأن تماسيح النيل قد تقيأتها من شدة بشاعة ومرارة ذلك الرجل.

راح يضغط على أسنانه الصناعية، كلما اقتربت من ذهنه صورة هذه الكريه. ولكنه كان مضطرًا لأن يستدعى ذكرياته معه.

وتذكره ..

عثمان بك كان يكبره بعشرين عامًا فى ذلك الوقت.. وهو أحد زبائن ورشة ميكانيكا السيارات التى يعمل بها.. توطدت العلاقة بينهما بشكل قوى .. أصبحا شبه صديقين .. وانتهى الأمر بهما أن كليهما كان يبث الآخر همومه وأحلامه. وكان فارق السن كفيلاً بأن يسيطر عثمان تمامًا على عقله المشتت.. استطاع بسهولة أن يحركه فى الاتجاه الذى يريد.

بكل الأساليب العفنة.. بالمال والمخدرات.. بالطموحات الزائفة وبالوعود البراقة. وكانت من أهم خدماته الدنيئة هى توفير الأماكن المغلقة للقاء شوكت بأمال.

وهكذا سقطت البراءة فى أحضان الخطيئة.

وتحركت النبتة الضالة فى أحشاء ابنة الخامسة عشرة.

وأصبح مصيرها ما بين الانتحار أو القتل.

وجاء دور الشيطان ليتقدم بالحل الأمثل والمنقذ لهما.

ويقترح بأن يهربا ويتزوجا عرفيًا وأنه سيتولى تذليل كل العقبات أمامهما سواء بالعمل أو الدراسة أو الإقامة.

حياة وردية.. ولكنها بلون دماء القتلى والضحايا.

وهربا المراهقان.. هربا وهما مكبلان بقيود التهديد، فكلاهما يخشى نتائج خطيئته.. أمال قد تتعرض للقتل من عمها الذى كان ينتظر جنى ثمار مهرها وشوكت أفزعه خطورة جريمته كمحرض لفتاة قاصر.

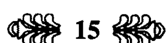
أما عثمان بك، ذلك الشيطان الآدمى.. أو الآدمى الشيطان، فقد كشف عن حقيقته بمجرد أن أحكم قبضته على مقاليد أمورهما .. وأفصح عن نواياه الدنيئة بعد أن قدم لهما العطاء فى سبيل أن يرجئ المقابل فيما بعد.

كان العطاء هو توفير فرصة عمل لشوكت وأيضًا السماح لأمال باستكمال دراستها بنظام الانتساب، والأهم هو الإقامة الآمنة.

والإقامة الآمنة تمثلت فى مزرعة صغيرة تقع على أطراف مدينة «القليوبية» تخصصت فى إنتاج الخطيئة وتصديرها إلى داخل المجتمع وخارجه.

بدت المزرعة وكأنها رقعة متأججة قد انشقت من جهنم وسقطت فى هذا المكان وهى تحمل خطايا كل البشر الآثمين.

مكان يأوى الهاربات المراهقات .. الحالمات التائهات..



المشـردات الضـائعـات.. ضحـايا الظلم وهوان العـاهرات.. جـميع ساكنيها قاصرات.

لكل واحـدة منهن قـصـة، ولكل منهن ذلة.. مـهمـتـهن الوحـيـدة ممارسة الخطيئة تحت أشكال مختلفة من الضغوط والتهديد. فما كان عثمان بك هذا إلا واحدًا من سماسـرة القوادة.

وكانت أمال حلمى واحدة منهن.

خمس سنوات أمضتها وهى تجتـر فجيعتها فى كيانها ووليدها الذى أنجبته ولم تره.. وفى شوكت الذى اسـتسلم لقهـر الظروف أو استملح ذلك.

وفجأة انتهى كل شىء.. اختفت أمال كما اختفى عثمان. وبيعت المزرعة أو أعيدت لأصحابها.. وكأن شيئًا لم يكن.

خمسة وثلاثون عامًا مضت على تلك الذكريات المظلمة.

و.. اهتـزت قـدمـا شـوكت فـهـمى من شـدة الإرهـاق.. حـيـث ظل واقفًا لمدة ساعتين يتأمل سطح النيل بنظره، ويجتـر مـرارة الماضى فى حلقه.

وقرر أن يعود إلى منزله.. إلى حيث السمعة الطيبة بين جيرانه أو إلى واقعه الجديد الذى تستر على مـاضيـه مقـابل أن يستضيفه على هامش الحياة.

وعند عودته لم يفاجئ بوجود ولده «هيثم» حيث اعتاد كلاهما ألا ينشغل بالآخر.

ولكنه اضطر أن يهمس إليه وهو فى طريقه إلى غرفته قائلاً:

- أنت هنا يا هيثم !

أجاب الشاب صاحب الثلاثين عامًا.. باقتضاب :

- نعم أنا هنا .

وعلى غير المألوف التفت شوكت إليه متساءلاً :

- أترغب فى أن أعد لك طعام الغذاء؟

نظر إليه فى شرود قبل أن يجيبه بسؤال قائلاً :

- هل أنت جائع ؟

تردد شوكت برهة قبل أن يتفوه بأى كلمة، وكأنه لا يدرى ماذا يريد وبماذا يجيب .. ولكنه فى النهاية قال :

- ألسنا فى وقت الظهيرة .؟ !!!

همس وهو يتأهب للنهوض بتثاقل :

- استرح أنت .. وسأتولى أنا إعداد الطعام .. و..

وتحرك فى اتجاه المكان المخصص للطهى ، وبخطى تشبه الإنسان الآلى.. أو المخدور. كان هيثم فارع الطول يبدو لمن ينظر إليه أن به انحناءة خفيفة لا يعرف سببها إن كانت بسبب قامته أم من ضغط

انكساره . وسيم الوجه ولكنها وسامة باردة لها ملمس الثلج، وكأنها لوحة زيتية لصورة وجه لا حياة ولا نبض فيها. الشرود يملأ مقلتيه والاكتئاب يقبض على شفتيه، ويتسم بهدوء المقهورين والمحرومين.. والمحبطين.

تناول آنية معدنية لا يعرف ما بداخلها، ولم يسع لذلك.. ثم وضعها فوق الموقد الغازى بعد إشعاله.. ثم وقف أمامه مترقبًا دون ملل.

لم يكن هيثم يعرف شيئًا عن ماضى والده.. فذكرياته تبدأ منذ أن كان فى العاشرة من عمره. وقتها كان أبوه يعمل عند جده لأمه فى ورشة حدادة تقع فى حى الغورية.. لا يذكر والدته التى توفت وهو فى سن الثالثة.

علاقته بها كانت من خلال صورتها المرفوعة على جدار الحائط.. ويذكر أيضًا بعد وفاة جده أنه كان يعود من مدرسته ليسرع إلى محل البازار فى منطقة خان الخليلى ليظل يعمل به إلى أن يخيم الليل، ثم يعود إلى والده ليختلس بعض الوقت فى استذكار دروسه. وبالرغم من فترة صباه الجافة التى افتقد خلالها إحساسه بالمشاعر الأبوية تجاهه.. دون أن يعلم لذلك سببًا.. إلا أنه كان سعيدًا برعاية صاحب محل الأنتيكات له الذى كان يتعامل معه وكأنه أحد أبنائه، كما ساهمت طبيعة عمله فى خان الخليلى فى

اكتساب الكثير من معرفة اللغات الأجنبية والتى ميزته بين أقرانه أثناء دراسته فى كلية التجارة بداية شبابه. وأسعده أكثر ثقة الرجل فيه لدرجة أنه أصبح يكلفه بمهام كثيرة كان يحرص تمامًا على عدم إشراك أبنائه فيها، كأن يستلم البضاعة أو يتفاوض فيها مع مختلف المتعاملين معه سواء من مناطق صناعة التشكيلات الأثرية أو فى مناطق أخرى كالأقصر والمنيا هذا التميز فى التعامل أنساه أن الحياة تتشابك فيها تعاملات أخرى تضم الظالم والمظلوم، والقاهر والمقهور.. والحاكم والمحكوم.. والسارق والمسروق والفاجر والمستور والقادر والمحروم، والفائز والمهزوم.

تعاملات بين الأثرياء والفقراء.. والأقوياء والضعفاء والأسوياء والأشقياء. المحظوظين والمحبطين. التعساء والسعداء.

و.. كان من الطبيعى أن يكون هو أحد أطراف تلك التعاملات.

وقرر واقعه أن يكون هو الطرف المظلوم.

حيث فوجئ ذات رحلة من رحلاته المعتادة بالقبض عليه من خلال شرطة الآثار بتهمة تهريبها.. وكان أيضًا من الطبيعى أن يتنصل الجميع من المسئولية ويتحمل هو بمفرده ثلاثة سنوات داخل غياهب السجون. لم ير والده طوال تلك الفترة فى زيارة واحدة له.

وبعد انقضاء مدة سجنه، يذهب لصاحب محل الأنتيكات لعله يستفيد بشكل من أشكال المقايضة، ولكنه يكتشف أن الآخر يمضى

عـقـوبة السـجن سـبـع سنوات، ويتـعـرض للإهـانة من أحـد أبنـائه ويشتبكا فـى خصومة بالأيدى تكون من نتيـجتها تعرض الآخر لعاهة مستديمة تكلف هيثم ستة أشهر أخرى داخل السجون.. ثم يعود مرة ثانية للمجتمع ولكن بنفس غير النفس ووجدان غير الوجدان.

وتذكر أيضًا كيف انتقل من حال إلى حال مع والده، ومن واقع إلى غيره إلى أن حطت بهما الأقدار وساقتهما الظروف إلى منطقة الزيتون ليصبح والده ترزيًا للسيدات .. ويظل هو بلا عمل.

و.. تذكـر أيضًـا أنه يقف أمـام الإناء المعـدنى الذى كـاد أن ينصهر فوق الموقد الغازى من شدة اللهب، وربما أدرك فى حينها أن الإناء كان فارغًا. فـأطفأ النار. وتحرك مـرة ثانية فى إتجاه غـرفته بخطوات مـتثاقلة ثم ألقى بنفسه فوق الفـراش. دون أن يسـأل عن حال والده.. ولا شوكت فهمى استفسـر عما حدث. وكأنهما اعتادا على الانتظار.. انتظار المجهول.

2

عندما يتمرد الوجدان.. ينتصر الوهم على الواقع.

هكذا شعر شوكت فهمى عندما استيقظ فى اليوم التالى .

كل شىء تبدل وتلاشى أمام لحظة إحساس غريب هاجمت كيانه، فأحالت إحباطه إلى نشوه، ومن الغفوة إلى الصحوة ومن الخوف والتردد إلى القوة والعزم.

لحظة ثار فيها الوجدان.. تمرد على الزمن والبدن، والماضى الذى كان.

انتابه إحساس بأنه فى الخامسة والعشرين من عمره.. امتدت يد التهور إلى حصيلة إدخاراته طوال خمسة عشرة عامًا ماضية، اقتحم بجرأة محلات بيع الملابس الراقية وابتاع منها لنفسه ما لا يناسب عمره الحالى.. لم يشعر بحرج وهو يطالب «الحلاق» بأن يضع لمسات الموضة فوق وبين خصلات شعره الخشن، وألح على تهذيب شاربه الذى طالما عان كثيرًا من هرج شعيراته. وأيضًا لم يشعر بالندم بعدما تسربت من بين أنامله مئات الجنيهات داخل محل الأحذية، فالحذاء الجديد كان ثمنه يوازى كل الأحذية التى



اقتناها طوال العشرين سنة الماضية. ولأن القرار كان جريئًا، فبدت تصرفاته أكثر جرأة.

وقرر الذهاب إلى أمال حلمى.

استوقفوه رجال أمن الوزارة.. يسألون ويستفسرون .

تردد برهة إذدرد فيها ريقه.. وأجاب :

.. أنا أحد أقرباء معالى وكيل أول الوزارة.. أمال هانم حلمى.

أخبروه إنها فى اجتماع مع السادة الوكلاء، ولكنه امتعض بجرأة وطلب انتظارها واضطر مدير مكتبها وطاقم السكرتارية أن يسمحوا له بالصعود إليها لحين تنتهى من اجتماعها.

كان ثابتًا فى خطواته، وكأنه استمد ثقته بنفسه من هيبة ملابسه.

انتظر فى صالون الاستقبال.. ساعة، ساعتين، ثلاثة.

وكأنهم تذكروه فجأة، عندما تقدم منه أحدهم متساءلاً بتأدب:

- من حضرتك .. وهل عندك موعد مع سيادة الوكيلة ؟

شعر بأنه عاريًا تمامًا وبأن أمره انكشف، وكأنه لا باع ولا اشترى وضاعت كل الأموال التى أنفقها على ملابسه الجديدة هباءًا.

وبعد لحظات انكماش.. قال بصعوبة :

- أخبروها بأن قريبها شوكت فهمى يريد مقابلتها.

و.. قبل أن يتحرك الرجل، عاد شوكت واستوقفه بجرأة.. قائلاً:

- أخبرها أيضًا إننى وصلت من طوخ الآن فقط.

مضت دقائق كثيرة أو سنوات طويلة.. لم يعد يعرف.

خذلته قدماه.. شعر وكأنه أصيب بالشلل فجأة، عندما اقترب منه شخص آخر وهمس إليه بإقتضاب :

- تفضل .. الهانم فى انتظارك .

سار خلف الرجل منتقلاً من غرفة إلى أخرى.. تقوس قوامه قليلاً من شدة الخوف والانكسار، وكأنه فى طريقه إلى المقصلة التى ستفصل رأسه عن جسده.

وفى النهاية وجد نفسه داخل مكتبها بمفرده بعدما تخلف المرافق عن الدخول. انتابه إحساس بأنه يقف فوق طرف الكون بينما مكتبها الفاخر يستقر عند الطرف الثانى من نهاية الكرة الأرضية. لم يعد يدرى إن كان المكان فسيحًا أم أن نظره أصبح عاجزًا عن الرؤية القريبة.. هل هى تجلس وراء المكتب أم الذى يراه ضبابيًا هو مجرد وهم؟

غاصت خطواته فوق البساط الوثير، شعر وكأن قدميه تعانى من لزوجة الوحل. كان ينتقل بتثاقل لا إرادى.. كل شىء من حوله يوحى بالجمود، لم تعد لديه القدرة لتحديد مسار اتجاهه، الصمت يخيم على المكان وأيضًا فى داخله. وكلما ازداد اقترابًا من المكتب العريض كلما تملكه الإحساس بالغموض والترقب.

الشىء المؤكد بالنسبة له أن هناك من يجلس وراء المكتب فى ثبات مثير دون أدنى إشارة لحركة أو التفاتة.. ولا صدى.

وبعد عدة خطوات رحلت عنه الإرادة والقدرة على التفكير وبدا مستسلمًا بلا اختيار.. وتوقف عن السير أو أوقف عنوة، حينما اخترقت أذنيه كلماتها إليه بنبرة متهكمة:

- ألا زلت على قيد الحياة !!

وتبدل كل شىء فى لحظة ، وانقلب حاله رأسًا على عقب بعد أن شعر بأنه مطالب بأن يثبت لها بأنه حى، وبأنه هو نفسه .. لحظة أسقطت كل تصوراته ومخططاته فى هوة المباغتة .

وقبل أن يحرك شفتيه بكلمة.. أردفت قائلة بحزم :

- اجلس.

و.. انشغلت عنه بمكالمة هاتفية، أتاحت له الفرصة لأن يتأملها بهدوء خمسة وثلاثون عامًا لم تضف إليها الكثير.. فقط النظارة الطبية وبعض الامتلاء فى قوامها.. ولكنها هى .. بشعرها الملتهب كقرص الشمس، ومقلتيها الزرقاوتين وحاجبها الأشقر الكثيف، والعنق الذى اشتهرت بجماله، والبشرة الملساء التى احتفظت بنضارتها ووردية لونها.

أنهت المكالمة.. وانتهت معها تأملاته، وبادرته متساءلة بثبات:

- هه .. ماذا تعمل الآن يا شوكت ؟

ابتلع توتره قبل أن يجيب قائلاً بهمس :

- عندى محل .

رمقته من وراء نظارتها .. ورددت :

- سوبر ماركت !!

تراجع برأسه قليلاً ، ثم قال على استحياء :

- ترزى حريمى .

طفحت القشعريرة فوق جسده ، وكأنه أصيب بمرض الجدرى فجأة، عندما أزاحت النظارة عن عينيها وحاصرته بنظرة قاسية تصورها قنبلة موقوتة سوف تنفجر فى وجهه بعد لحظة. فهو أدرك ما تعنيه بتلك النظرة المرتابة وكأنها تتساءل فى صمت إن كان استبدل مهنة المزرعة بالمحل .

استجمع قدرته قبل أن يقول :

- الحمد لله أن سمعتى جيدة .. ولى ابن وحيد .. و..

قاطعته باقتضاب :

- ماذا تريد يا شوكت .. وما الذى أتى بك إلى هنا؟!

فرك أصابع يديه بعضها ببعض.. وأجاب بتأدب :

- فى الحقيقة جئت أهنئك بالمنصب الجديد.. وأعتقد أنه يهمك معرفة أحوالى.

نظرت إليه بازدراء.. ثم قالت بترقب :

- من أين أتاك هذا الاعتقاد ؟!

بدأ يشعر باستعادة الثقة بنفسه، وأسرع قائلاً بلا تردد:

- ما كان بيننا .. أليس كذلك ؟!

و.. مرة أخرى عادت تهمل وجوده وانشغلت عنه بكتابة بعض الأسطر فوق وريقة صغيرة.. ثم مدتها إليه باتزان شديد قائلة :

- هنا مكان عمل ولا يصلح للمضايفة .. هذا عنوانى وسأنتظرك غدًا فى السابعة مساءً .

وقبل أن يعلق .. أردفت :

- مع السلامة .

تحرك نحو الباب وهو تحت تأثير مفاجأة ذلك الاستقبال غير المتوقع. فتوقف ملتفتًا إليها وقال بصوت مرتفع فى محاولة منه لحفظ ماء وجهه :

- بالمناسبة .. أنا أبحث عن وظيفة لهيثم ابنى .

همهمت دون أن تنظر إليه :

- مع السلامة يا شوكت .

وما أن توارى خلف الباب، حتى تناولت سماعة التليفون وحدثت مدير مكتبها قائلة بحزم يشوبه التوتر :

- إلغى جميع المواعيد .. لا أحد يدخل ولا مكالمات هاتفية .

ثم وضعت السماعة ، وهى تنظر بشرود إلى لا شىء .

شعرت بجفاف حلقها وهى تعبث بقلمها فوق الأوراق بخطوط متقاطعة ثم إلى دوائر متداخلة ، وكأنها تستدعى أفكارها المضطربة لتلقى بها فى سلة المهملات .

ولكن محاولاتها باءت بالفشل .. فصدى الماضى كان أقوى من رغبتها .

وتذكرت .. أو أجبرت على التذكر.

كيف استطاع سمسار تجارة الأطفال وقرين الشيطان « عثمان القواد» أن يقنعها بالهروب معه إلى خارج البلاد وهى فى السنة الثالثة من دراستها الجامعية، وكيف أتمت دراستها فى دولة عربية أخرى وهو يرافقها بصفته خالها.

تذكرت محاولات استثمارها فى تجارته المعتادة لترويج الدعارة. وتزامن لقاؤها مع زوجها الحالى الذى كان شابًا يعمل فى بداية حياته مهندسًا ضمن أعضاء شركة كبرى للمقاولات المصرية. فى نفس التوقيت الذى تم القبض على عثمان وتم ترحيله خارج البلاد. وانقطعت صلتها بفترة الضياع الذى بدأت منذ هروبها مع شوكت إلى أن انتهت بزواجها من المهندس أسامة السروجى.

وتذكرت أيضًا، كيف تعددت انتقالاتها مع زوجها إلى بلاد

عربية وأفريقية بمقتضى أعمال شركة المقاولات الكبرى. وعادت بعد ثلاثة أعوام لتلحق بالعمل داخل وزارتها الحالية وتوالت نجاحاتها إلى أن وصلت لذلك المنصب الذى لم تكن تتوقع أنه يمسك بطرف ماضيها وسوف يجذب أحداثه بظهور شوكت فهمى.

وهو أيضًا لم يكن أفضل حالاً منها، فمنذ اللحظة التى اختفى فيها من أمامها وهو يكبت إحساسه بالمهانة، بالمكابرة تارة وبحواره مع ذاته تارة أخرى.

.. كيف استطاعت أمال أن تقهر عزيمتى بهذه السهولة، ومن أين أتت بهذه المقدرة التى سيطرت بها على عقلى وكيانى ؟

كيف تبدلت المواقع بيننا فأصبت أنا بالضعف والخجل وهى بالقوة والجرأة! قد يكون منصبها هو الذى منحها تلك القدرة.. أم بسبب اهتزاز صورتى أمامها عندما أبديت الكثير من الاحترام لها.

و.. لم يعد إلى المحل وذهب إلى منزله ليواجه نظرات هيثم الصامتة والمندهشة بسبب مظهره الجديد .

حاول أن يكون طبيعيًا وهو يبادره قائلاً :

- عندى لك مفاجأة مذهلة .

لم يتلق تعليقًا أو استفسارًا.. فاستطرد بثقة :

- تحدثت مع مسئول كبير بشأنك، لكى يوفر لك عملاً جيدًا.. و..

أحبطته نظرات هيثم المتشككة، وكأنه يستكثر عليه إمكاناته لمقابلة أى مسئول حتى لو كان صغيرًا.

عاد مستدركًا وواصل حديثه بنبرة هزيلة :

- فى الحقيقة هى مسؤلة .. وكنت أعرفها منذ زمن بعيد .. ولا يمكنها أن ترد لى طلبًا .. تعتبر تقريبًا من إحدى قريباتى .

وبهدوء مثير تحدث هيثم لأول مرة قائلاً بتهكم :

- وهل نحن لنا أقرباء؟!

سارع قائلاً بحماس أكثر :

- طبعًا .. ولكن الظروف كانت ...

ولكن هيثم يقاطعه .. مرددًا أثناء استدارته فى اتجاه غرفته:

- لم أكن أعرف أن المسئولية أصبحت تافهة إلى هذه الدرجة.

لم يحرك شوكت ساكنًا ، واكتفى بمتابعته إلى أن توارى عن نظره .. كان الإحساس بالتقصير تجاهه أقوى من رغبته فى مواصلة الحوار معه .

وانشغل عنه بالغليان الذى يفور فى أعماقه بسبب لقائه بأمال.

استلقى فوق فراشه وهو يحملق إلى سقف الغرفة المتشقق كوجدانه.

وراح يحاور نفسه بالتمنى، فى محاولة منه لإخماد لهيب الغيظ فى صدره :

.. سأجعلها تندم على تصرفها معى.. سأذلها وأدمر حياتها إذا لم تستجب لمطالبى. سأعيدها إلى صورتها منذ أن كانت فى حارة المكسيكى. نعم سأذكرها بالمكسيكى ذلك الفتوة الضائع الذى كان يهتك حرمة جسدها فى ذهابها وإيابها دون أن تجرؤ هى أو غيرها على الاعتراض.. سأذكرها بملابسها المهترأة والتى عانت من كثرة إصلاحها.. وبتوسلاتها لى لكى أخلصها من حياتها القاسية وإنقاذها من زوج عمتها الذى كان ينتظر استرداد كل ما أنفقه عليها. سأذكرها بدموعها وملاحقاتها لى.. بأحلامنا وحبنا القديم، بعثمان بك وليال المزرعة. بطموحات الثراء.. وبولدنا الذى بعناه أو تنازلنا عنه دون أن نراه .. و..

همهم بنبرة مسموعة مرددًا :

.. ولدنا !!

وكأنه فى الأربعين من عمره انتفض تاركًا الفراش، ودس يده داخل دولاب ملابسه العتيق، وتناول صندوقًا خشبيًا متوسط الحجم وأفرغ ما فيه فوق المائدة الصغيرة، ثم التقط ورقتين ملتصقتين ببعضهما. والتهم بعينيه الأسطر التى سجلت فوق الورقة التى تثبت زواجهما العرفى .

وفى لحظة شعر فيها وكأن بحار الدنيا تصب فى أعماقه لتطفئ نيران الغضب بداخله.

وعاد إلى موقعه واستلقى من جديد وهو يضم الورقتين إلى صدره هامسًا إلى نفسه :

.. موعدنا غدًا يا سيادة وكيلة أول الوزارة ..

و.. ترقرقت ابتسامة زابلة فوق شفتيه الجافتين قبل أن يغمض جفنيه طمعًا فى نوم عميق.

3

مثلما الذكريات الأليمة تثير الأحقاد، فأيضًا النسمات الرقيقة قد تشعل الرماد. وكما أن رقصات الأفاعى ليست طربًا بقدر تأهبها للدغات الغدر.

والمياه الراكدة لا تروى ظمأ العطش.

وعندما يصبح معنى الظلم نسبيًا، ولا يعى دلالة الحق إلا المحروم.. وأيضًا عندما تسقط المعايير وتختلط المشاعر وتصبح الرغبة أقوى من الإمكانات، وتتحدد الخطى قبل الطرقات.

فى هذه الحالة تتهاوى كل التوقعات.

هكذا أشعلت نسمات الغروب أعماق شوكت فهى وهو فى طريقه إلى فيلا أمال حلمى.

كان قلبه ينبض بالغل، وفكره يتأجج غضبًا.

وكأنه اكتشف فجأة أن لديه كرامة أهينت.. وطُعن فى كبريائه.

وكأن له نخوة أضنيت وحقوق سُلبت، ومبادئ سُحلت.

وأدرك بخبراته مع الرذيلة، أن ماضيه معها أقوى من حاضرها بدونه .

استقرت عقارب ساعة يده عند السابعة مساءً.

وعلى بعد عدة خطوات من الفيلا. قفز إلى خاطره سؤال:

.. كيف تجرؤ على استضافتى فى منزلها.. أليس لديها زوج.. أم توفى؟!

ضغط على جرس البوابة وهو يتمتم :

.. هذا شأنها على كل حال .

لحظات قليلة وظهر حارس الڤيلا وبادره سائلاً :

- أي خدمة ؟

أجاب بثبات :

- أنا شوكت فهمى .. و..

وقبل أن يسترسل . قاطعه الرجل بتأدب :

- تفضل يا سعادة البك.. الهانم تنتظرك بالداخل .

اندلف بجرأة.. ولكنه توقف فى حيرة عندما لاحظ ابتعاد بناء الڤيلا عن موقعه.. ممر الوصول إليها طويل جدًا، وكأن لا يطأها إلا مالكو السيارات وكان عليه أن يقطع المسافة سيرًا على قدميه، وعلى أعصابه المتواترة.

حاول أن يتأمل المكان ولكن بشائر الليل حالت دون ذلك.. أدرك بحسه فقط أن الأشجار كثيفة على جانبى الطريق، واختلطت

فى أذنيه أصوات زقزقة الطيور و«نقيق الضفادع».. أفزعه صوت نباح الكلاب التى لا يراها وأيضًا خطوات الرجل الذى يسير خلفه.

وعند مدخل الفيلا تولى شخص ثان مسؤلية دخوله إلى القصر المسمى بفيلا «السروجى». أجلسه فى صالون يحيط به عدة صالونات أخرى. وتركه غارق فى انبهاره .

كل شىء مختلف عن واقعه وأحلامه.. الثريات التى تحتل كل واحدة منها مساحة أكبر من الغرفة التى يقيم فيها بمسكنه.. الأبسطة التى خالها مصنوعة من الرمال الناعمة.. والإضاءة التى أتت بضوء الشمس فى بداية الليل.. الهدوء المثير والتحف التى تعمد أن يكتم أنفاسه أثناء مروره بجانبها حتى لا يسقطها.

و.. ظهرت له أمال حلمى من الطابق الثانى.

واقتربت منه جالسة دون أن تصافحه.. ثم قالت ببرود :

- المفروض أنك أحد أقرباء البلد، وتعمل فى التجارة.. انسى مسألة الترزى هذه .

ازدرد ريقه . قبل أن يتساءل :

- ومن يهمه أن يسأل عن ذلك !

أجابت مع نظرة قاسية :

- زوجى مثلاً .. أو ابنتى، أو أى أحد حتى الخدم.

همس بصعوبة مرددًا :

- زوجك .

واصلت نظرتها التى تحمل معانى احتقاره . وأكدت :

- نعم زوجى.. أم كنت تظن أننى سأظل بدون زواج حتى الآن. و..

وضعت ساقًا فوق الأخرى واستطردت :

- المهم .. ماذا تريد . وما هى قصة ا بنك هذه؟

تسلل إلى صدره إحساس الأفعى عندما تشعر بالدفئ، أو بالحرباء وهى تتأهب لتغير لونها، واستجمع شجاعته أو وقاحته.. وقال على غير المتوقع :

- أنا جئت من أجل قصتنا.. وليس لأجل قصة ابنى .

حاولت أن تتقمص اللامبالاة .. وقالت :

- ماذا تقصد ؟

ازداد جرأة .. قائلاً :

- قصدى أنتِ تفهمينه جيدًا.. أريد أن أعرف ماذا حدث منذ آخر لقاء بيننا.

- هل جننت .. كيف تجرؤ على محادثتى بهذا الأسلوب !

تعمد أن يتجاوز كلماتها .. وأعاد قائلاً :

- أنا فى انتظار إخبارى بكل شىء.

تراخت نبرة صوتها دون قصد .. وقالت :

- تزوجت .. ولى ابنة تجاوزت العشرين بقليل .

قال بصفاقه :

- بالتفصيل يا أمال .

شعرت بالفزع عندما استعادت فى ذاكرتها سطوته عليها.. وحاولت بقدر جهدها أن تتماسك قبل أن تقول :

- الأحداث بعيدة .. وطبيعى ألا أتذكرها جيدًا.

ظهرت أسنانه الصفراء من أسفل شاربه .. وفاجأها قائلاً :

- سأعاونك.. لعلك تستعيدى ذاكرتك.. أريد أن أعرف ماذا حدث منذ زواجنا العرفى أنا وأنت.. وهروبك مع القواد عثمان.. وأين اختفيت طوال هذه السنوات؟

كتمت بصعوبة صرختها وهى تردد مذهولة :

- زواجنا العرفى .

- نعم زواجنا .. ألست زوجتى حتى الآن بحكم الشرع والقانون؟!

قالت بتوجس :

- كان هذا كألعاب الصبية.. ثم إننا مزقنا الأوراق على ما أعتقد.

قال بفتور :

- لا .. لا تعتقدى ذلك.. الأوراق معى.. ولا زلت فى انتظار معرفة ما حدث!

حاولت من جديد استعادة ثقتها بنفسها .. وبادرته :

- هو ابتزاز إذن !!

شعرت بنظرته تلسع بشرتها .. قبل أن يؤكد قائلاً :

- الابتزاز أسلوب من ليس له حق.. وأنا عندى كل الحقوق لديك.

همست إلى نفسها :

.. لا مفر إذن .

و.. بدأت تسرد قصتها مع الماضى. كيف هربت مع عثمان وكيف أتمت تعليمها الجامعى.. وكيف تزوجت من أسامة السروجى.. وعن ابنتها خريجة الجامعة الأمريكية والتى تمتلك شركة سياحية كبرى. ومع مرور الوقت اختفى الإحساس بالتوتر، وبات الحديث أكثر تلقائية وود.

وهو أيضًا انساق وراء ذكرياته، وراح يقص عليها كل شىء منذ افتراقهما وكيف تزوج وأنجب ولدًا واحدًا.. وتحول من مهنة إلى أخرى. وما هو حاله الآن.

ساعتان.. اعتصرا فيهما خمسة وثلاثين عامًا مضت عليهما.

باغتها بسؤال لم يخطط له .. قائلاً :

- ولكن أخبرينى .. كيف تزوجتى من هذا الثرى؟

ونضح إناء أعماقها .. وأجابت مبتسمة :

- فى ذلك الوقت.. اكتشفت أن هناك من هو أكثر سذاجة منى.

ولأول مرة يشتركا فى ضحكة على غير اتفاق.

ثم تساءل من جديد :

- وهل لا يزال فى حياتك .. أم ..

قالت بلا تمهيد :

- هو كثير السفر بحكم أعماله.. ولو أنه أصبح على ما أعتقد غير قادر على ذلك بحكم تقدم السن. كما أن لقاءاتنا نادرة.

- وابنتك !

ضمت شفتيها وكأنها تتذكرها.. ثم قالت بهدوء :

- چى چى.. والدها أنشأ لها شركة سياحية كبرى حسب رغبتها.. وهى مخطوبة لرجل يمتلك عدة بواخر سياحية.. يبدوا أنهما تعارفا من خلال طبيعة عملهما المشترك.

طفرت فى مخيلته صورة هيثم.. فأسرع متساءلاً :

- وأين مقر شركة ابنتك ؟

ترددت لحظة.. ثم أجابت دون مبالاة :

- فى الحقيقة لا أعرف.. فأنا لا أشغل بالى بمثل هذه الأمور.

- تصورى أنا أيضًا لا أعرف شىء عن هيثم ابنى.. غير أنه بلا عمل.

قالت وهى تدعى الحكمة :

- الحياة أصبحت قاسية .. ولا أحد يهتم بغيره .

- عندك حق.. فكلانا تذوق مرارة الظلم .. فنحن شريكان فى العذاب.

أومأت برأسها تؤيده، وقبل أن تتفوه بكلمة واحدة.. أردف قائلاً:

- وفى أشياء أخرى أيضًا.

عاد العبوس يفترش ملامح وجهها بعد كلماته الغامضة.. وهمست:

- على كل حال الماضى ذهب بأفراحه وأحزانه.

وبدون مقدمات أو تلميحات، تقلصت أسارير وجهه.. وقال بجدية مصحوبة بالتحدى:

- بما أنك قانعة بأننا شريكان.. فهذا سيوفر الكثير من الجهد لكى نتفاهم.

لم تفلح فى إخفاء مكرها وهى تقول:

- بالطبع.. سأوفر لابنك هيثم أى عمل لدى چى چى فى شركتها.

أسرع يلاحقها قائلاً :

- هذا أمر مفروغ منه .. أنا أحدثك عنى وعنك .

تساءلت بنبرة مرتجفة :

- ماذا تقصد ؟!

قال وهو يتأهب للوقوف :

- أقصد أن لى الحق فى كل هذا الحصاد.. فنحن شركاء منذ البداية.. نحن دفعنا الثمن باهظاً قبل ذلك. أذلتنا الظروف وأزرفنا الدموع وقاسينا ظلم القهر.. و.. تنازلنا عن أشياء كثيرة على رأسها وليدنا الذى لم نعرفه.. أليس كذلك.؟!

نهض وهو يستطرد وكأنه يحدث نفسه :

- حان الوقت لكى نجنى ثمار ما زرعناه بقطرات دماءنا.

وقفت فى مواجهته.. وقالت بتنمر :

- لا تلعب بالنار يا شـــوكت.. لا تنس من أنا الآن. الظروف اختلفت وبإمكانى أن أقضى عليك بكل الطرق.

أطال النظر إلى عينيها فى لحظة جمود.. ثم قال بصوت هادئ:

- إذا نالت النيران من إنسان، عليه أن يهرع لأبدان الآخرين ليطفأها قبل أن يتفحم.

أجابت بثبات :

- اطفأها بعيداً عن هنا يا شوكت.

تدلت ابتسامة باهتة على شفتيه قبل أن يحركها قائلاً :

- كيف؟! .. وأنتى اللى أشعلتيها .

استشعرت خطورة موقفها، وأدركت أن محاولتها قد باءت بالفشل وبأن عليها أن تسعى إلى طريقة أخرى .

وهدأت ملامح وجهها قبل أن تبادره بنبرة ودودة قائلة :

- اجلس يا شوكت ولا داعى لهذا التوتر.. يبدو إنك ما زلت متهورًا كما كنت فى السابق .

تسمر فى مكانه دون حراك.. مما دفعها أن تتقدم منه بخطوة واستطردت :

- اجلس يا شوكت.. دعنا نتحاور بهدوء. فما كان بيننا أقوى من أن نفكر فى تدمير أنفسنا.

أسعده كثيرًا تراجعها.. وجلس مرة ثانية.

و.. تحاورا من جديد.

حوار تشكلت أحرف كلماته بكل ألوان ومعان الخبث والدهاء والوضاعة المفضوحة كل منهما حاول أن يكشف عن قدراته لتدمير الآخر، كانا كيانين من الجليد يشتركان فى التبلد وافتقادالمشاعر الإنسانية.

صراع بين خطيئتين أو رزيلتين والشيطان يحكم بينهما بحياد تام.

لكنهما توقفا عن المبارزة الكلامية فجأة عندما ظهر أسامة السروجى العائد من خارج الفيلا، وسرعان ما انفرجت ملامح وجهها وبدت فى صورتها الأنثوية وبادرته قائلة بتلطف:

- أهلاً يا أسامة.. حمدًا لله على السلامة.. متى عدت من سفرك؟!

تقدم زوجها فى اتجاههما، وأجاب والبشاشة تملأ وجهه:

- مساء الخير يا عزيزتى.. يبدو أن عندك ضيوفًا.

وبثبات مثير التفتت نحو شوكت.. وقالت :

- شوكت بك .. أحد بلدياتى ويعمل بالأعمال الحرة. و..

تحولت إلى أسامة .. ورددت :

- أسامة بك السروجى.. زوجى ومهندس استشارى.

تصافحا الرجلان بود كبير.. ثم عاد زوجها يحدثها قائلاً:

- بالمناسبة يا عزيزتى أنا لم أكن مسافرًا، ولكننا لم نلتق منذ ثلاثة أيام تقريبًا.

تداركت موقفها سريعًا.. وهمست بصوت حضيض :

- اللعنة على مواعيد عملنا المختلفة.. فأنا لا أراك صباحًا وأنت لا ترانى مساءً. و..

وضحكت بميوعة وهى تستطرد:

- على كل حال هذا أفضل لأنه سبب فى ازدياد الشوق بيننا.

شاركها الضحك بطفولية لا تتناسب مع سنوات عمره التى اقتربت من السبعين.

ثم التفت إلى شوكت.. وقال :

- إذا لم يزعجكما وجودى.. فسأكون سعيدًا لمشاركتكما الجلسة.

أسرع شوكت .. قائلاً :

- ذلك شرف لى يا أسامة بك.. ولكنى كنت أتأهب للانصراف.

وما كادت آمال تؤيده على ذلك إلا أنها تراجعت أمام إصرار زوجها الذى لاحقه قائلاً بتلطف كبير :

- والله لا يحدث هذا الآن.. فأنا سعيد لرؤية أحد أقرباء آمال.. خاصة لأنها المرة الأولى التى أتعرف بها على أحد من بلدياتها.. و..

أطلق ضحكة أخرى بقهقهة مرتفعة.. وهو يواصل:

- وهى فرصة أيضًا لأجلس مع زوجتى التى لا أراها كثيرًا.. فهى مشغولة بعملها دائمًا.

استجاب شوكت لمطلب الزوج.. وكانت فرصة ليتأمل ملامحه.

كان أسامة السروجى بدين لدرجة الترهل، قصير القامة وأصلع الرأس. طلعته الشخصية توحى بالثراء الفاحش.. والبلاهة أيضًا.



مضت الدقائق فى ثرثرة ثلاثية لا معنى لها.. ما بين متعة الرحلات ومشقة العمل. والمناخ غير المستقر، وأحدث موديلات السيارات والإنشاءات التى قام بها.. ولا مانع من تبادل كلمات النفاق التى تبادلت بين الزوجين.. والإعجاب بالضيف. وأمور أخرى بعيدة تمامًا عن سبب تواجد الضيف نفسه بعد هذه السنوات الطويلة.

وتأكيدًا على حسن النوايا.. تساءلت أمال قائلة:

- بالمناسبة يا أسامة.. هل تعرف عنوان مقر شركة چى چى.

أجاب بلا اكتراث :

- نعم يا حبيبتى .. و..

تناول قلم من سترته وسجل العنوان على أحد كروته الشخصية ثم ناولها إياه دون أن يستفسر عن السبب. وهى بدورها مدت الكارت إلى شوكت.. وقالت:

- سأخبر چى چى لكى تكون باستقبال هيثم فى أى وقت.

ولأول مرة ينساق الزوج لفضوله ويسأل على استحياء :

- مَنْ يكون هيثم بك؟

ابتسم شوكت مضطرًا ومستكثرًا على هيثم هذا اللقب.. ثم قال:

- إنه ابنى .. ولو كان سمع هذا اللقب عنه لسقط مغشيًا عليه.

واشترك الجميع فى ضحكة مسموعة لتلك الطرفة التى ذكرها الأب.

وعاد السروجى يقول موجهًا كلماته له :

- ليته يخبرها عندما يراها بأننى أشتاق إليها.. وأريد معرفة أخبارها.

رمقه بنظرة مندهشة قبل أن يتحرك مستأذنًا للانصراف.

فلاحقه الرجل مرددًا بصدق:

- دعنى أرافقك للسيارة.

أجاب شوكت منزعجًا بعض الشىء :

- لا داعى يا أسامة بك.. فأنا تعمدت ترك السيارة خارج أسوار الڤيلا لكى أمارس هوايتى فى السير.

لم يتردد كثيرًا قبل مصافحته واستدار فى طريقه إلى الطابق الثانى.. تاركًا زوجته مع ضيفها.

وبمجرد اختفائه، تحولت أمال إلى شوكت.. وقالت بتجهم من جديد:

- حاول أن تتخلص من أفكارك السخيفة هذه يا شوكت.. وعلى كل حال أنا بإمكانى أن أعطيك مبلغًا مناسبًا من المال تستكمل به حياتك الباقية دون مشاكل.

تحرك نحو الباب.. ثم التفت إليها وأجاب بهدوء وثبات:

- سأمنحك فرصة لمدة أسبوعًا.. واعتقد أنها مهلة كافية لتحديد موقفك بعدها ستكونين أنت المسؤلة عما سيحدث لك.. ولأسرتك غير الشرعية.

تمنت لو فى إمكانها إطلاق النار وتقتله.. أن تبصق عليه.. أن تنقض بأظافرها وتنزع أحشاءه، أن تفصل رأسه الكريه عن جسده.

وفى النهاية همست باستسلام :

- مع السلامة الآن يا شوكت :

لم يعقب.

ومرة ثانية عاد يخطو منفردًا فوق الممر المظلم دون أن يرافقه أحد على غير ما حدث عند مجيئه. ولكنه كان أكثر ثباتًا وثقة فى نفسه، بعدما أدرك أنه استطاع أن يخلخل كيانها ويسقط أقنعتها التى حاولت أن تحتمى بها أمامه.

ومن خلال ظلمة الليل وأعماقه.. همس إلى ذاته مرددًا:

.. يبدو أن الدنيا سوف تبتسم لك يا شوكت، وتصدق مقولة أن الحياة تبدأ بعد الستين.

4

كأنه قطعة أثاث عتيقة جدًا وضعت،وسط موبليا مودرن حديثة فبدت نشازًا عن باقى المنظومة حوله.. كأنه صفحة بيضاء بلا أسطر ليس لها موضع أو أهمية داخل موسوعة مليئة بالمعلومات. أو زهرة زابلة اندست خطأ وسط مجموعة من الورود النضرة فأفسدت رونقها.. كأنه كلمة بلا معنى فى أبيات قصيدة شعرية رائعة الخيال.

هكذا شعر هيثم بنفسه وهو جالس فى صالون الانتظار داخل الشركة السياحية التى تمتلكها ابنة أمال حلمى.

كل شىء من حوله كان مبهرًا.. الهدوء المتناغم مع الموسيقى الحالمة، الديكورات الساحرة. وملابس العاملين بالشركة وكأنهم فى أتيليه، رائحة العطور التى تفوح من كل جانب.

دقائق قليلة مضت على انتظاره، شعر بها وكأنها أعوام طويلة.. إلى أن اقتربت منه فتاة رقيقة وبادرته بوجه بشوش قائلة:

- أهلاً أستاذ هيثم.. كلنا سعداء بوجودك بيننا.

نهض يصافحها بتأدب شديد.. ثم قال:



- أهلاً چى چى هانم.. أنا ..

قاطعته بابتسامة أكثر رقة.. وهمست بود ملحوظ :

- لا. لا أنا لست چى چى هانم.. أنا زميلتك فايزة من العلاقات العامة.

ردد بارتباك :

- أنا أسف.. فى الحقيقة أنا لم أر چى چى هانم من قبل. ولكنى..

وفى محاولة منها لبث الطمأنينة إليه.. أسرعت قائلة:

- لقد أسعدنى كثيرًا نبأ تعيينك ضمن فريق العمل معى فى العلاقات العامة هنا.

و.. كانت تلك اللحظة هى بداية زمنية جديدة ورائعة فى حياته سحبت ورائها الأسابيع والشهور وهو ينخرط داخل المجموعة بسهولة ودون تعقيدات وساعده على ذلك خبراته السابقة فى ذلك المجال.

تولى مهام استقبال الأفواج السياحية فى المطار برفقة فايزة أحيانًا وبمفرده أحيانًا أخرى.. كل شىء كان يسير فى إطار منظومة هادئة على غير ما اعتاد فى حياته السابقة.. الوظيفة لائقة والراتب مغرى وعلاقة الزملاء تقترب من الصداقات التى لها تاريخ. بات يشعر بأن له كيان وتواجد بين الآخرين. لم تعد الحياة با لنسبة له مجرد زفرات يطلقها من صدره، بل معنى جميل يسيطر

على عقله، وطموحات براقة تسكن أعماقه وتدغدغ وجدانه. وكأنها منحة قدرية أو هبة حياتية تمثلت فى انفراج شفتى الزمن عن ابتسامة وفاق الواقع الجديد معه.. فألقت إليه بلحظة مبهجة عندما فوجئ بدخول فتاة غريبة إلى مكتبه الذى تصادف تواجده فيه بمفرده فى ذلك اليوم وتقدمت نحوه وبادرته بجرأة سائلة:

- ما أخبارك يا أستاذ هيثم.. أرجو أن تكون مستقرًا فى وظيفتك.

أسقطته المباغتة فى حيرة ما بين كلماتها وبين جمالها الأخاذ.. وقال وهو يرمقها بنظرة مندهشة :

- حضرتك تعرفيننى؟!

تلألأت ابتسامة فوق شفتيها جعلت من وجهها أكثر شروقًا وضياءً.. وأجابت:

- طبعًا أعرفك.. أنت الأستاذ هيثم فهمى أليس كذلك؟!

أومأ برأسه دون أن يعلق.. واستطردت هى قائلة:

- أنا چيهان السروجى.. و..

انتفض بلا وعى.. وردد قائلاً باضطراب واضح:

- چى چى هانم.

اتسعت ابتسامتها الرقيقة.. وقالت بود:

- إن لم يكن لديك مانع.. فأنا چى چى بالفعل.

تحرك من وراء مكتبه وأصبح فى مواجهتها وهو يردد بارتباك:

- أنا أسف .. فى الحقيقة .. لم أكن أقصد .. و..

لم تمنحه فرصة إتمام جملة مفيدة أو مفهومة.. وقالت بنبرة جادة:

- علمت أنك تجيد أكثر من لغة.
- نعم .. فأنا أتحدث الإنجليزية والفرنسية بطلاقة.. ويمكننى فهم اللغة الإيطالية.

ارتاحت لإجابته.. وقالت بحسم:

- هذا جميل.. فأنا أحتاجك لمرافقة فوج إضافى سيأتى غدًا من كندا.. وكل زملائك منشغلين مع أفواج أخرى.. وعليك صباحًا أن تستقبلهم فى المطار، ثم ترافقهم لمدة أسبوع فى رحلة نيلية إلى الأقصر.. وستجد كل تعليماتى عند السكرتيرة وأيضًا البرنامج المتفق عليه معهم.. و..

وقبل أن يتفوه بكلمة واحدة، اختفت من أمامه فجأة كما ظهرت فجأة. وكأنها ومضة برق لاحت فى الأفق لمدة ثوان ثم تلاشت، أو خاطر جميل اجتاح عقله ورحل دون مقدمات.

وقف حائرًا عدة لحظات لا يعرف ماذا يريد، تحرك بعدها إلى خارج المكتب، وتوجه إلى السكرتيرة، واستلم منها التعليمات ودسها فى جيبه دون أن يقرأها، وكالمسحور وجد نفسه خارج الشركة تمامًا

يسير وسط الزحام وكأنه يبحث عن ذلك الكيان الملائكى الذى تدلى إليه من أفق الأحلام لمدة ثوان واختفى.

تساءل فى صمت:

.. أيمكن أن تكون هذه ملامح بشرية؟!!

هذا الوجه الوضاء الذى يشع نورًا أكاد أتلمسه، وتلك العينان التى استقطبتا حقول الدنيا ومزارعها فى مقلتيها. وذاك الفم الرقيق الذى تحميه شفاه قرمزية تتساب من خلالها الكلمات فى صورة ابتسامات تضفى على الكون البهجة والسعادة، والأنف الشامخ فوقها كما لو كان تاجًا فوق رأس أجمل جميلات الدنيا.

.. أيمكن أن تكون هذه ملامح بشرية؟!!

الشعر الكستنائى الذى تتصارع على خصلاته كل ألوان الطيف فى الأفق. والقوام الممشوق كحد السيف. ونبرات صوتها التى تتدفق من أوتار الكمان وترانيم الناى. و..

لأول مرة بعد غيبة طويلة تسوقه قدماه إلى محل والده، الذى استقبله بنظرة فاترة.. ومندهشة.

وكأنه جاء ليلقى عليه بمعلومة ثم ينصرف بعدها.. وقال دون أن يهتم بالنظر إليه وبدون مقدمات :

- لقد تعرفت على صاحبة الشركة اليوم.. چى چى هانم.

أجابه وهو يضغط على فكيه:

- أخيرًا ظهرت لك ابنة اللئيمة.

رمقه بنظرة متقززة.. ثم همس باستياء:

- أنا أحدثك عن صاحبة الشركة التى أعمل بها.. وأنت تتحدث عن واحدة أخرى ابنة لئيمة كما تصفها.

قال ساخرًا:

- أعرف أنك تقصد چى چى.. وأنا أعنيها.. فهى مؤكد مثل أمها لئيمة وابنة لئيمة.. وعاهرة أيضًا.. و..

استدار هيثم منصرفًا بعيدًا عن المحل وهو يردد فى نفسه مذهولاً:

.. الرجل مسه الجنون، مؤكد المخدرات سحلت عقله.

كان كلاهما على حق فيما يرى!!

شوكت فهمى لم تسحل المخدرات عقله، ولكنه ذاق الأمرين فى الأشهر الأخيرة من مكائد أمال حلمى التى استغلت علاقاتها وسخرتها لإيذائه وتهذيبه بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة.

فتارة يفاجئ بادعاء امرأة «زبونة» جديدة بأنه حاول مغازلتها وخدش حيائها وتتعمد الصياح والصراخ لكى تكتمل فضيحته أمام أهالى المنطقة، وتارة أخرى تتقدم سيدة ثانية ببلاغ إلى الشرطة تتهمه فيها بتبديد بضعة أمتار من القماش كانت قد سلمته إياه لكى يقوم بتفصيلها.. ولم يفعل. ومرة ثالثة يفاجئ ببلاغ كيدى بأنه

يخفى داخل محله كمية من المخدرات فيناله ما يناله من إيذاء معنوى أثناء التحقيق معه إلى أن تثبت براءته.

كان يعلم أن أمال حلمى وراء كل تلك المكائد، ولكنه لا يملك دليلاً على ذلك. وفى كل اتصال يجمع بينهما أثناء استنزافها ماديًا كانت تتفنن فى ارتداء قناع السذاجة والبراءة. وازداد يقينه بأنها تدبر له خيوط مأساة جديدة عندما فاجأته بأنها قد طلبت تسوية معاشها وتقدمت برغبتها فى الاستقالة.

ولهذا كان كلاهما على حق فيما يرى!!

خاصة هيثم الذى أزعجه رأى والده فى چى چى ووالدتها، وراوده خاطرًا بأن ينبرى للدفاع عنهما أمامه، ولكنه آثر الانسحاب بعيدًا عنه لأنه فى النهاية لا يعنيه رأيه، بل لم يكن فى حاجة لأن يعرف ردود أفعاله.

فلقد اعتاد أن يصدر شوكت له الإحساس باليتم بالرغم من وجوده على قيد الحياة.. اعتاد منه اللامبالاة والأنانية.. والغموض.

ولكن.. الذى لم يعتد عليه هو ذلك الشعور الغريب الذى بدأ يتسلل إلى كيانه منذ الوهلة الأولى التى رأى فيها چى چى. إحساس لم يكن وجدانه صالحًا لاستقباله فى أى وقت مضى منذ نعومة أظافره. فهو لم يهتز لحظة فى حياته أمام أى موقف إنسانى أو مثير لعواطفه.. قلبه الذى تليف على نبض العذاب والقهر

والحرمان كان رافضًا بلا تعمد لأية مؤثرات تفرض عليه. حتى محاولات فايزة التى دأبت على استمالته بكل الطرق باءت جميعها بالفشل وتحطمت على أسوار جموده وشروده الدائم.

وكأن الحياة أرادت أن تلقنه درسًا جديدًا، بأن فى جعبتها الكثير من أسرارها التى لا يعرف عنها شيئًا، وكان من ضمن أسرارها نداء القدر الذى من المستحيل تجاهله مهما حاول أن يصم أذنيه. فالمفاجأة أذهلته بقدر ما أسعدته، عندما وصل إلى مرسى الباخرة فى الأقصر ووجد چى چى فى استقبال المجموعة السياحية التى كان يرافقها، حيث استقلت الطائرة فى يوم وصول الباخرة لتكون فى انتظارهم وتؤدى دورها فى الإرشاد السياحى لانشغال موظفيها مع مجموعات أخرى فى نفس التوقيت.

ثلاثة أيام.. شعر فيها وكأنها رحلة عمره بأكمله.

وكأنه وُلد فى لحظة لقائه بها وعاش طفولته وصباه وشبابه فى تلك الأيام الثلاث. رافقها بين المجموعة السياحية، ولكنه لم ير غيرها.. لم يسمع غير صوتها بالرغم من أنها لم تحدثه طوال تلك الفترة.. فقط كان يتابعها بنظراته التى يختلسها كلما سمحت الظروف دون أن تدرى هى، حتى أمنياته بدت مستحيلة فكان مع كل شروق للشمس فى يوم جديد كان يأمل ألا يأتى الغروب وأن تظل ساطعة مشرقة حتى لا ينتهى اليوم أو ينتهى لقاؤه الصامت

بهـا. فـيـعـود ساهرًا وخـائبًـا داخل غـرفـتـه بالبـاخـرة فى انتظار إشـراقـتـهـا فى اليوم التـالى.. كـان يراهـا ملكة من أسـاطيـر ملكات الفـراعنـة، تحكم الشـعـوب.. والقلوب. كل شىء من حـولهـا يخـضع لسلطان جمالها ولإرادتها، وازداد يقينه بذلك عندما علم من العاملين التابعين لها بأن الباخرة نفسها هى ملك لخطيبها محسن بك.

فكيف لا يرى فيها الأسطورة.. وكيف لا تسجد مشـاعره أمـام معبدها!!

كـان قـرار عـودتهـا بالبـاخـرة مـعـهم أشـبـه بهـواجس الأحـلام بالنسبة له.. لم يصدق واقعه عندما نمى إلى علمه ذلك، ولم يصدق الدنيا بأنها سوف تحقق له أملاً مستحيلاً. ولكن واقعه صدق معه.. و.. الدنيا لم تكذب عليه.

وأبحــرت البــاخــرة إلى رحلة العــودة، وهى تحــمل مليكتــه الأسطورية دون أن يجرؤ على الاقتراب منها كعادته منذ لقائه بها.

لم يجد غير نهر الأسـرار أنيسًا يبثه خواطره وتأمـلاته المحلقة فى سمـاء الوهم وأحلام اليقظة.. كان يقضى نهاره متصفحًا سطح الأفق الصـافى لعله يكتشف من أين هبطت تلك الحورية، ومحلقًا فى قرص الشمس فى عناد كاد أن يفقده بصره على أمل أن تكون صورتها هى آخر ما يراه فى دنياه.

ويأتى المساء فينزوى بعيدًا فوق سطح الباخرة متوسـلاً لذلك

العمـلاق الهـادر بكبـرياء لعله يكشف له عن هذا الغمـوض الذى سيطر على كيانه قبل أعماقه. ولكن.. لا النهار أنصفه ولا الليل أشفق عليه.

وقرر أن يعود إلى غرفته.

و.. فجأة تدانت نجوم السماء واقتربت من الأرض، وأسـرع الليل يحتمى فى جوفها لتحيل الظلام إلى ضياء، وتموج سطح النيل فى موجات متلاحقة ورأى طيور النورس المستحيل تواجدها فى ذلك المكان.. وحلقت الطيـور من كل جـانب وهى تغـرد بأعـذب الألحان، وتفتحت أوراق الزهور لتمتص نسمات العطر الفواحة التى هبت نحوه بلا مقدمات.

وقبل أن تلعب به الظنون أدرك الحقيقة.. حيث ترامى إليه صوتها من ورائه فالتفت مذهولاً ليجدها أمامه واقعًا وليس خيالاً.. وبادرته قائلة :

- أنت هنا .. وأنا أبحث عنك منذ ساعة تقريبًا.

نهض وهو يستند على الفراغ، وحاول أن يجيب ولكنه فشل.. فأردفت:

- أردت أن أهنئك على حسن تعاملك مع المجموعة.

همس بصعوبة:

- أشكرك.

دارت بعينيها تمسح الموقع من حولها.. ثم قالت بنبرة دافئة:

- ما أجمل هذا المنظر!.. عندك حق تنفرد بنفسك.. و..

وقبل أن يعلق.. استطردت بتلقائية وهى تشير إليه بالجلوس ثانية:

- اجلس .. فأنا فى حاجة للاسترخاء قليلاً من عناء العمل.

أطاع رغبتها دون تلكؤ.. وجلست بجواره ثم واصلت قائلة:

- لاحظت أنك دائم الشرود وتفضل الانطواء.. أتلك طبيعتك دائمًا؟!

قال باقتضاب:

- اعتدت على الوحدة منذ طفولتى.

أظهرت رغبتها فى التسامر معه .. وعادت تتساءل:

- أليس لك أصدقاء أو أحباء.. زوجة أو خطيبة؟

- لا.

رمقته بنظرة مندهشة.. وقالت:

- غريبة.. فالمجموعة هنا كلها تثنى على قبولك ولباقتك فى الحديث.

نظر إليها بارتياح مستتر.. ثم أجاب:

- هكذا حال الغرباء.. فهم يتآلفون مع الغريب سريعًا وكأنهم يشعرون بنفس مشاعره.

ازدادت دهشتها.. ورددت متساءلة فى حيرة :

- وهل أنت غريب.. كيف وأنت فى وطنك؟!

أجاب بلا تردد:

- الغربة غربة وجدان وليست أوطان.

أسرعت قائلة ببراءة :

- بالمناسبة أنا علمت أننا على صلة قرابة أو من أصول ريفية واحدة.

- وأنا أيضًا أخبرنى والدى بذلك.

فاجأته بسؤال تقليدى :

- من أى بلد أنت ؟

تملكه الصمت لعدة ثوان كثيرة .. ثم أجاب بصوت منخفض:

- فى الحقيقة .. لا أعرف.

صاحت بتعجب قائلة :

- كيف؟ .. هل يمكن لإنسان ألا يعرف أين كان نشأته أو نشأة عائلته ؟

- أنا .. أنا هذا الإنسان .

التفتت إليه فى نظرة صامتة وقد ارتسمت على وجهها كل بصمات الاندهشات والتركيز.. حاول أن يبتعد عن محاصرة

مقلتيها له ولكنه لم يستطع.. وفجأة.. وعلى غير المتوقع، أطلقت ضحكة بصوت عال مقهقهة فى هستيريا فجائية.. مما دفعه لأن يتساءل بحذر:

- ما الذى أثار ضحكاتك؟.. فأنا لم أذكر شيئًا يستدعى كل هذا الضحك.

لم تتوقف عن ضحكاتها بسهولة.. ثم قالت بكلمات متقطعة :

- لأننى أيضًا.. اكتشفت أننى لا أعرف لى بلدًا بعينها. وأين جذورى العائلية.

وبلا إرادة وجد نفسه يشاركها الضحك من قلبه وبسعادة غامرة.

قالت ببهجة حقيقية :

- الحمد لله أن مدحت خطيبى لم يسألنى هذا السؤال وإلا اكتشف جهلى بالأصول.

انطفأت مصابيح الفرحة فوق شفتيه.. أو انفجرت.. ثم قال بنبرة حزينة:

- أنا ولدت يتيمًا.

استجابت لنبرته المكتئبة.. وهمست بفضول متزن:

- ألم تسأل والدك يومًا؟!

- لا أذكر أننا اجتمعنا فى حديث خاص من قبل. فهو لديه مشاغله وأنا لم أسع ذلك .

قالت بصدق :

- وأنا أيضًا .. فبالرغم من أننى لست يتيمة الأبوين.. إلا أننى لم أتذكر يومًا أننى جلست مع إحداهما فى حديث خاص بى.

انفلتت من شفتيه كلمات دون قصد .. قائلاً :

- ألم أقل لك أن الغرباء دائمًا ما يتآلفون .

رمقته بنظرة حائرة قبل أن تفاجئه بالنهوض.. وقالت وكأنها تذكرت موعدًا هامًا:

- الفجر بدأ يتسلل فى الأفق.. وسأحاول اقتناص بضعة ساعات للنوم.

و.. تركته دون أن تنتظر منه تعليقًا.

وقف مشدوهًا وهو يتابعها إلى أن اختفت من أمامه تمامًا.. وكأنه اعتاد منها أن تظهر فجأة وتختفى فجأة كما حدث فى أول لقاء بينهما.

تلفت حوله.. وشعر بوحشة المكان بدونها.

وأصبح فى نظره الأفق غير الأفق، والنهر غير النهر.. والنسيم غير النسيم. ولكنه ارتاح لإحساسه بأنه أصبح فى هذه اللحظة أيضًا.. ليس هو.

وردد فى ذاته.

.. هذا يكفى يا زمن!!

5

بدت أمال حلمى كالنمرة الجريحة وهى تتجول بين أشجار حديقتها.. أو غابتها.

فاض بها الكيل، لم تعد تحتمل ملاحقة شوكت فهمى لها. حاولت معه بأساليب مختلفة على أمل أن تثنيه عن مطاردته.. هددته، أنذرته، أوقعته فى مصائد كيدية. وفى أحيان أخرى حاولت استمالته أو استعطافه. منحته بعض المال بل الكثير منه. أسقطت من حساباته أى تلميح بفضحها فى عملها، واستقالت.

أرهقها، وشتت أفكارها. أقلق حيرتها وأحال حياتها إلى جحيم يزداد اشتعالاً فى أعماقها مع كل يوم.

لم تجد عنده منفذًا، فخرجت إلى حديقة فيلتها تخطو بين الأشجار بخطوات ثعبانية، تقطف الزهور لتلقى بها إلى أرض بدلاً من استنشاق عبيرها. إحساسها الحقيقى هاجم الطبيعة.. طفح على كل ما حولها.. رأت النجوم وكأنها أعين لذئاب متربصة لافتراسها. وحفيف أوراق الشجر كطبول الحرب الغابرة. وتحولت الشتلات الصغيرة إلى أشواك ورماح.. واختلطت ظلمة الليل بقتامة

أعماقها وأطلت رؤوس الأفاعى من صدرها لتهمس فى أذنيها أو تبث سمومها فى عقلها الباطن. شعرت برئتيها تئن من الاختناق والألم. فقررت أن تنفذ قرارها المؤجل.

عادت إلى داخل الفيلا. صعدت إلى الطابق الثانى.. أو زحفت.

طرقت باب غرفة نوم زوجها، واندلفت وهى تخفى توترها، وبحنكة بالغة أسرعت باستدعاء عبق أنوثتها وابتسامتها التى رحلت عن شفتيها منذ زمن بعيد وما أن رآها حتى اعتدل فى جلسته فوق الفراش.. وبادرها برقة قائلاً:

- لابد أننى فى حلم جميل.. زوجتى الغالية فى غرفتى!!

تقدمت إليه وجلست عند الطرف الآخر من الفراش.. وقالت بدلال فطرى:

- اشتقت لكلماتك الجميلة، وغزلك الراقى.

تدلت ابتسامة على طرف شفاهه الغليظة.. وعاد قائلاً:

- سامح الله عملك الذى أخذك منا طوال السنوات الماضية.. فى الحقيقة قرار اتخاذك الاستقالة هو فى صالحى أنا بالتحديد.

همست بنبرة ناعمة :

- أنت أيضًا استسلمت لأعمالك ورحلاتك خارج البلاد.. وكثيرًا ما عانيت من بعادك عنى.

خانه تفكيره.. وتصور أنها جاءت لملاطفته.. فأسرع يقول بتودد:

- ها أنتِ تصرين على الابتعاد.. لماذا لا تقتربى أكثر؟

تململت للحظة، ثم نهضت ببطء واستدارت فى اتجاه أحد أركان الغرفة وجلست فوق أريكة صغيرة توسطت مقعدين.. ورددت بحسم:

- دعك من هذا الآن.. فأنا أريد أن أتحاور معك فى أمر هام.

ضم شفتيه فى استسلام أقرب إلى خيبة الأمل، وسارع بارتداء الروب ثم تقدم نحوها وجلس فى مواجهتها.. وأبدى اهتمامًا وهو يقول:

- أنا منصت إليك.. ماذا فى الأمر يا أمال!

- فى الحقيقة لا أعرف إن كان الوقت مناسبًا لذلك أم لا.. ولكن فى النهاية يجب أن نتشاور معًا لحل مشكلتنا التى قد تعترضنا فيما بعد.

ازداد تحمسًا لسماعها.. وتساءل بلهفة:

- يبدو أن الأمر خطير بالفعل.. تحدثى من فضلك.

فركت أصابع يدها، وزاغت ببصرها للحظات بعيدًا عنه، ثم عادت تسلط إليه نظرتها المترقبة.. وبادرته بجدية:

- ألم يتبادر إلى ذهنك ماذا سيكون حالى أنا وچى چى إذا ما قدر الله وحدث لك مكروهًا.

سأل منزعجًا :

- ماذا تقصدين ؟!

أجابت بلا تمميق :

- الخلود لله فقط.. والموت سينال منك ومنى يومًا .. مهما طال الزمن.. وفى هذه الحالة ستؤول أغلب ثروتك إلى أشقائك لأنهم أنجبوا ذكورًا .. وأنت لم تنجب غير جيهان .

امتعض وقد طفرت ملامح الاستياء على وجهه قبل أن يقول:

- تفكرين فى موتى.. وأنا بينكما على قيد الحياة. و..

ضحك بسخرية وأردف :

- وأنا بسذاجتى كنت متصورًا أنك أتيت إلى غرفتى لتبادلينى الحب.

- هذا التصور أنساك أنك فى السبعين.. وعلينا أن نتدبر الأمر بشىء من الجدية.

- وما هى الجدية فى نظرك يا زوجتى العزيزة؟

أجابت بثقة :

- أن تفعل كما يفعل أغلب الأثرياء الذين فى مثل ظروفك.

- لا زلت فى انتظار وجهة نظرك.. يا شريكة عمرى.

مالت برأسها قليلاً نحوه، وكأنها تتأهب للدغه.. ثم قالت:

- جميل أن تدرك بأننى شريكة عمرك.. ومن حقى عليك أن تضمن لى مستقبلى ومستقبل ابنتك الوحيدة.
- وهل هناك ضمان أكثر من الحياة التى تعيشين فيها معى.
- اسمع يا سروجى.. لا داعى للمناورات الحوارية.. وأنت تفهم قصدى جيدًا.

أجاب بهدوء مثير:

- نعم . نعم أفهم مقصدك. أنت ترغبين فى أن أتنازل لك عن أملاكى وأموالى بيعًا وشراءً حتى تضمنين مستقبلك بعد وفاتى.

عادت ترتدى وشاح الأنوثة.. وقالت بنعومة ودفء:

- بعد عمر طويل ومديد يا حبيبى.. ولكن.

قاطعها بنفس الهدوء قائلاً:

- ولماذا أنتِ؟.. لماذا لا أتمم تلك الصفقة لصالح ابنتنا چى چى!!

كررت بهمس:

- چى چى. !!

لاحقها مؤكدًا :

- أجل.. چى چى. أليست ابنتنا الوحيدة؟!

مضت لحظات سكون وهى واجمة.. كصمت القبور.

فى هذه الأثناء نهض برشاقة بالرغم من بدانته الواضحة.. واستدار فى خطوات قليلة فى عكس مكانها.. وراح يردد وكأنه أمام ساحة قضاء:

- أنا أقول لك لماذا لم تفكرى فى جيهان. لأنك من الأساس لا تفكرين إلا فى ذاتك.. لا تعرفى شيئًا فى الحياة إلا كيانك ورغباتك.. قلبك لا ينبض إلا بالأنانية وأطماعك التى لا حدود لها أنستك حتى أمومتك.

قفزت خلفه كالفهد.. وكشفت عن نواياها بصيحة مدوية:

- أنا لا أسمح لك أن تحادثنى بهذه الطريقة.. وقبل أن تكيل لى الاتهامات حاسب نفسك أولاً.. تساءل أين كنت ومتى كنت بيننا. أنت الذى لهثت وراء شهواتك العنترية مضحيًا بواجباتك كزوج وكأب من أجل الثراء والشهرة.

التفت إليها وهو يحاصرها بنظرة فاحصة.. ثم أجاب بصوت خفيض:

- لم أكن أعرف أن حنجرتك قوية إلى هذا الحد.

واصلت وهى لا تزال فى حال هياج عصبى.. قائلة :

- وأيضًا لا أسمح لك بتلك السخرية. و..

اتجهت نحو باب الغرفة فى طريقها للانصراف.. وأردفت:

- على كل حال سأتركك تفكر فى الأمر.

أشعل سيجاره الغليظ.. وقال وهو موليًا لها ظهره:

- لم أنته من حديثى معك. بعد.

توقفت فى التفاتة مندهشة.. وهمست باتزان :

- أنت متوتر الآن.. وسنكمل حديثنا فيما بعد.

أسرع قائلاً بحزم :

- الآن !!

- ماذا تقصد بإصرارك هذا!؟

عاد إلى مجلسه مرة ثا نية وهو ينفث سيجاره بعمق.. ثم قال:

- مأ دمنا قد كشفنا عن نوايانا.. فيجب أن تكون الأمور أكثر وضوحًا.

سرعان ما ارتدت معطف الأفعى من جديد.. ورددت بنعومة:

- لم أعتد منك على رفض أى طلب لى.. ولهذا من الأفضل أن نؤجل حديثنا.

ومرة ثانية يقول بحزم :

- بل الآن !!

استجابت لمطلبه وجلست أمامه وهى تتأمل ملامحه بترقب.. بينما استطرد هو قائلاً:

- إذا كان هدفك هو الخوف على ثروتى من أطماع أشقائى بعد

وفاتى.. فذلك لن يحدث ولدى أسباب كثيرة ستؤكد لك أن هذا الأمر لن يحدث.

تساءلت بفتور:

- كيف .. ولماذا؟!

- سأخبرك .

و.. فاجأها بأنه متزوج من امرأة «أوكرانية» منذ عشر سنوات وأنجب منها طفلاً لا يزال فى الثامنة من عمره، وبأنه آثر إخفاء الأمر عنها إرضاءً لمشاعرها، وأيضًا إلى أن ينجح فى إقناع والدة الطفل بالإقامة معه فى مصر خاصة أن الولد فى حاجة لعلاج طويل إثر إصابته بمرض مفاجئ أفقده النطق والسمع وعدم القدرة على التركيز والوعى.

وصمت مترقبًا، فى انتظار ثورتها العارمة أو بكائها الصارخ.. أن تمطره باللعنات أو تطالبه بالانفصال.. أن تصفه بنكران الجميل بعد ما شاركته رحلة الكفاح الطويلة.. انتظر أن تستعطفه أو تبصق على وجهه بتقزز.

ولكن لا شىء من هذا حدث!!

وفاجأته قائلة ببرود يوحى بالقلق والحذر :

- هل زواجك منها شرعيًا ؟

رمقها بنظرة متشككة، ثم أومأ برأسه مؤكدًا ذلك.. فأردفت بنفس هدوئها:

- وهل تعلم مكان إقامتك بالتحديد؟!

إزداد قلقًا واضطرابًا من فتورها.. وهمس بضعف:

- لا .. لا أعتقد.

انفرجت أساريرها بغرابة شديدة.. ثم قالت بلا مبالاة:

- أين المشكلة إذن؟ .. اعتبر الأمر كأنه لم يكن!!

تساءل بنبرة متحشرجة :

- كيف ؟

- أخطرها بأنك طلقتها.. وانسى الأمر .

- وابنى!!

اقتربت منه حتى كادت أن تلامس صدره.. ثم قالت بدلال:

- أنت تقول أنه مريض ومعتوه.. فبماذا سيفيدك.. من الأفضل أن تتخلص منه!!

اتسعت عيناه فى ذهول.. قبل أن يقول:

- أتخلص من ابنى.. أى نوع من البشر أنتِ.

- أنا إنسانة واقعية.

قال بلهفة:

- وأمومتك .. هل يمكن الخلاص من ابنتك چى چى إذا كانت فى هذا الموقف؟!!

تمتمت بلا شعور:

- أنا .

ثم صمتت برهة.. أو أسكتتها ذكرى من الزمن الماضى عندما هاجمتها لحظة تسليمها وخلاصها من وليدها فى فترة حياتها مع شوكت وعثمان .

وبمقدرة تفوق حد البلادة، استعادت توازنها .. وأردفت:

- أنا لا أحب أن أضع نفسى فى هذا الموقف الذى أنت فيه الآن.

قال بجرأة غير متوقعة :

- لم يخطر ببالى قط أنك بهذه الدرجة من القسوة والتوحش.. أنتِ امرأة بلا قلب أو ضمير.. شيطانة فى هيئة بشرية.. و..

قاطعته ساخرة ومتهكمة :

- كفى.. كفى شعارات لا عائد منها أو فائدة.. أنت أخطأت والله عاقبك على خطيئتك ولا داعى للمكابرة .

- والرحمة والعدل.

تحسست بأناملها رأسه الصلعاء.. وأجابت بهمس الشياطين:

- الرحمة لا تساند السفهاء . والعدالة لا تحمى الضعفاء.

تخلص من أصابعها باشمئزاز، وقال بصدق:

- يبدو أن تأثير الصدمة عليك جعلتك فى هذه الصورة البشعة.. أنا أشـفق عليك.. وأيضًـا أتمنى أن تجـتـازى هذا الموقف وتتماسكى.. لأنه أمر واقع.

ابتسمت ببرود مثير.. ونهضت متأهبة للانصراف.. وهى تردد قائلة :

- فكر فى الأمـر جـيـدًا يا سـروجى.. فـأنا لا زلت أحـتـفظ لك ببعض الذكريات الجميلة.

وكأنه أطلق سهمًا مسمومًا إلى ظهرها، فهشم عمودها الفقرى حتى كادت أن تترنح إلى الأرض. عندما ترامى إلى مسامعها تساؤله بهدوء :

- بالمناسبة.. ما هى قصة المدعو شوكت فهمى الذى ظهر فى حياتنا فجأة.. ومسألة أقربائك الجدد الذين لم أسمع عنهم قط من قبل؟!!

وبصعوبة بالغة استدارت إليه وهى تحاول التماسك والاتزان.. وتأملته فى لحظة صمت متوترة، وكأنها تبحث فى عينيه عن مقصده الحقيقى.. ثم أجابت بحنكة العاهرات وجراءة الفاجرات:

- هذا أكبر دليل على أننى وهبت حياتى كاملة لك.. ولم أهتم

يومًا بأقربائى بعدما اعتبرتك كل شىء فى دنياى.. فأنت أهلى وكل عشيرتى.

تمتم كما لو كان يحدث نفسه :

- لا أظن !!

لم تعلق.. واستمرت فى سيرها منصرفة إلى خارج الغرفة وأغلقت الباب دونها. بينما عاد أسامة السروجى يردد كلمته بصوت مسموع :

.. لا أظن !!

6

الاختيار ليس دائمًا يعنى الحرية.. والإرادة.

هكذا وجد هيثم نفسه أمام لحظة اختيار ظالمة وقهرية.. وكأن العذاب دأب على رصد مسيرته فى الحياة وراح يتتبعه أينما ذهب. فمنذ طفولته وهو فى صراع غير متكافئ مع أحداث لا ذنب له فيها، حرمته الليالى من حنان الأمومة وسلبته الحياة رعاية الأبوة وأطلقته وحيدًا وسط عالم خاص به، كل ما فيه غامض مجهول لا يستطع من خلاله أن يفرق بين الخير والشر والصدق والكذب والحقيقة والخيال.. عالم هو زعيمه بلا أتباع ورفيقه بلا أليف.. استطعم المرارة واعتاد الخوف وأطمئن للوحدة.

لم يكن لديه ما يملكه لكى يطمع الآخرين فيه، ولكن الواقع كان له رأى آخر، حيث وجد ضالته فى عمره. فاغتصب صباه وامتص شبابه ثم طالبه بأن يعيش حياة سوية فى مجتمع لا يريده بل ويسعى لتدميره بلا مبرر.. فلم يكن أمامه وسيلة للاختيار.. غير أن يتوهم أنه فى مقدوره أن يمارس الحياة .

منتهى المرارة والظلم أن تتبادل المواقع بين لحظة ا لاختيار وبين صاحب القرار.

فى الآونة التى نبض فيها قلب هيثم بالحب لأول مرة فى حياته، أدرك فى حينها أنه من المستحيل التعبير عنه أو حتى يملك قرار الفرار منه.. ومنتهى المرارة والظلم أن يرفض ذات القلب أى مشاعر حب من طرف آخر وهو أيضًا لا يملك قرار الرضى به.

فكلا الأمرين ظالم.. وكأن الحب أيضًا ليس عادلاً.

لهذا اختلف معنى الاختيار عند هيثم شوكت.

وكأن الظروف كانت تخطط وتمهد له عمدًا كل لقاءاته مع جيهان. سواء داخل مكاتب الشركة أو على متن بواخرها السياحية.. التقيا فى كل شىء.. فى فكرهما وحواراتهما ورغباتهما واستسلامهما، حتى فى محاولة كل منهما إخفاء ذلك الشعور الهادر الذى تمكن من قلبيهما دون إرادة.

ولكن .. فى أغلب الأحيان يكون لصمت الحب صدى!

وجاء الصدى من خلال فايزة عندما دخلت إليه فى غرفته بالباخرة وفاجأته قائلة :

- الآن أدركت لماذا ترفض علاقتى بك.
- كيف أرفض علاقة الزمالة التى بيننا!

ضحكت بميوعة أقرب إلى الفجور ثم قالت :

- لا تتخابث على يا نمس.. فأنا أعرف كل شىء.

اهتزت أهدابه فى رجفه ارتباك.. قبل أن يقول :

- ماذا تقصدين؟!

أسرعت قائلة وهى تداعب طرف ذقنه بأصابعها وكأنه طفل صغير:

- يا شقى.. أنت لا تعلم أن عيونك قد فضحتك.

وقبل أن يبدى اندهاشه وتذمره من كلماتها.. لاحقته مستطردة بجدية :

- اسمعنى جيدًا يا هيثم.. أنا لا أنكر إعجابى بك. ولذلك فأنا أشفق عليك ولا أحب أن تتعرض لموقف يفقدك كل شىء.. وقد يضعك فى موضع لا تتمناه حتى لعدوك.

بدأت ملامح الغضب ترتسم على وجهه.. وقال بنبرة حذرة:

- أى موقف هذا الذى تتحدثين عنه.. ومن الأفضل أن تتخلى عن ذلك الغموض فى حديثك وإلا فلا داعى منه أساسًا.

رمقته بنظرة ساخرة.. ثم قالت :

- أنت تلعب بالنار يا هيثم.. علاقتك بچيهان هانم لن تتعدى عطفها عليك أو التسلى بك.. وإذا ما علم خطيبها صفوت بك بمحاولاتك ستكون نهايتك غاية فى السوء.

حاول أن يبدو منزعجًا وهو يقول :

- أنتِ مجنونة بلا شك .. كيف ..

ولكنها قاطعته بثقة :

- أنت الواهم .. يا عزيزى لا تفكر الصعود إلى أعلى قمة الجبل قبل أن تتأكد أولاً كيف ستعرف الهبوط منه .. وإلا .

استفزها دون قصد عندما أفلتت منه الكلمات قائلاً :

- أنتِ تغارين منها .. لأنها

لاحقته قائلة بإصرار :

- أغار ممن يا مسكين.. هذه التافهة لا كيان لها إلا بالورث التى سترثه من أبيها .

أجاب بتهكم :

- وأنتِ ماذا سترثين .!

عادت لميوعتها .. وقالت :

- أنا لا أنتظر الإرث.. أنا أعيش الواقع وأستمتع به.. و..

صمتت لحظة وهى تتأمله برغبة دفينة.. ثم أردفت :

- وأنت جزء من هذا الواقع.. فتعال نستمتع به سويًا.. فأنا وأنت متشابهان فى الظروف والموقف.. الفرق بيننا أننى أدرى وأنت واهم ولا تدرى.

تمتم بصدق :

- مسكينة چيهان.. لا أعرف كيف وثقت فيك وأنتِ بهذه النوايا السيئة.

وهنا لم تتمالك نفسها وراحت تقهقه بصوت عال.. ثم تماسكت قليلاً قبل أن تقول :

- يا رجل النوايا الحسنة.. أخبرنى إذن ماذا تبتغى من ملاحقتك لها.. فأنت تخطط لاستمالتها ظنًا منك بأنك ستستنزف أموالها.. ولكنى أبشرك بالفشل لأن طريقتك ليست ذكية. وهذا أقل وصف أصفه عنك .

- أنتِ إنسانة شاذة.. وچيهان هانم أشرف بكثير مما تظنين لكى تستجيب لأى علاقة حتى ولو كنت أسعى لذلك كما يصور لك خيالك المريض.

اقتربت منه بشدة فى محاولة لإثارة غرائزه، ولكنه تعمد ترك الفراش وانتقل إلى المقعد المجاور، بينما ظلت فى مكانها وكأن الأمر لا يعنيها.. ثم بادرته قائلة:

- سأوضح لك بعض الحقائق لعلك بعد ذلك تتخلى عن أوهامك.

لم يعلق .. ولكنه أبدى اهتمامًا بنظرته الصامتة إليها فى لهفة للإنصات.

شعرت لحظتها أنها أمسكت بطرف فضوله.. وبدأت تقول:

- هل تعرف طبيعة عملى فى الشركة.. وهل تعلم لماذا لا تستطيع جيهان الاستغناء عنى!!

أجاب بلا تردد :

- أعرف عنك النشاط والذكاء، وأنك تتقنين عملك. ولذلك هى متمسكة بك.

ومرة ثانية تطلق ضحكة عالية جدًا، وكأنها تتعمد أن يشعر الجميع بوجودها داخل غرفته.. ثم قالت:

- ألم أقل لك أنك لا تدرى شيئًا.. أنا يا صديقى مدير عام العلاقات الترفيهية للمجموعات السياحية.. ولأن سمعتى زائعة الصيت فأصبح الجميع يطلبوننى بالاسم.. فأنا أستفيد وهى أيضًا تستفيد وربما تؤهلك أنت أيضًا لكى تستفيد، خاصة أن السياحة رجال ونساء.. و.. مدحت بك يسبح فى نهرى ونهرها مع اختلاف الأسلوب.. و..

وعادت تقترب منه لتراوده عن نفسها بطريقة فاضحة.. ثم أردفت قائلة بدلال :

- ولكن رغبتى الحقيقية هى أن أسبح فى نهرك أنت.

دفعها برفق وهو يتجاوزها إلى مكان آخر.. وقال بحزم:

- وتلك أيضًا معلومة جديدة عنك.. بأنك امرأة رخيصة وكاذبة.

- أعرف أن المفاجأة أذهلتك.. ولكنى سأثبت لك صدق كلامى.. فقط انتظر رسو الباخرة فى الأقصر.. وستجدنى ضيفة فى غرفة مدحت بك بالفندق كالعادة.

قال باشمئزاز وحزم :

- من فضلك اتركى المكان فورًا.. وإلا .

- لا داعى للغضب.. أنا سأنصرف بمفردى.. ولكن عليك أن تتذكر ما قلته لك جيدًا.. وستعرف أنك كنت واهمًا.

و.. تركت الغرفة وتعمدت أن تتلكأ أمام بابها للحظات وهى تهندم فى ملابسها لكى تثير انتباه العاملين داخل الباخرة بكثير من الشبهات.

أما التساؤلات فكانت من نصيب هيثم!!

حيث استلقى على الفراش.. أو هوى فوقه، وهو فاقد القدرة على التركيز. وهاجمته همسات الظنون والحيرة فى أعماقه.. وراح يلهث ورائها متساءلاً :

.. من أين أتت تلك اللعوب بكل هذه الثقة.. أيمكن أن تكون صادقة؟

طفرت من بين شفتيه كلمات مرددًا بصوت مسموع:

.. مستحيل .. مستحيل أن تكون صادقة.. و..

عاد يسترجع فى ذاته صورة چيهان الملائكية، وحواراتها معه التى تنبض أحرفها بالنقاء وسمو معانيها.. ثم سرعان ما يكتئب صدره عندما يتذكر أسلوب تعامل مدحت بك معه الذى دأب على تسفيه أعماله وتحقير مجهوداته خاصة أمام چيهان التى كانت تتصدى بعنف لكل محاولات خطيبها من أجله وكثيرًا ما استرضت خاطره وطالبته بألا يهتم بتلك المهاترات .

ومرة أخرى تثور التساؤلات بداخله :

.. هل أنا واهم حقًا!!

.. أيمكن لأحد أن تكون لديه تلك المقدرة لكى يخدع الآخرين فى مظهره وسلوكياته بكل هذه البراعة والإتقان !!

.. إذا تحقق هذا فعلاً، فلابد وأن تكون للطيور أنياب.. وللزهور مخالب وللبراءة أقنعة خادعة .

و.. رست الباخرة فى ميناءها ولم ترسو خواطره الشاردة.

أمضى ساعات طويلة وهو يقطع الطرقات من موقع إلى آخر.. حائر الخطوات.. بلا هدف، وكأنه يراوغ قراره أو خائفًا من اتخاذه.

كأنه لا يريد أن يعرف الحقيقة.

يريد أن يحتفظ بحلمه الطاهر حتى ولو كان كاذبًا.. أو واهمًا.

نال منه تعب السير على قدميه، وتاهت ملامح الوجوه أمام

عينيه. لم يعد يرى إلا ما بداخله ما بين الظنون والمخاوف والتردد والفضول.

فاستسلم لقدره وقرر الذهاب إلى الفندق.

لعله يثأر من المرأة اللعوب فى حالة كذبها أو ينتصر لكرامته وأوهامه فى حالة صدقها. وما أن دخل إلى بهو الفندق وتصفح الوجوه بلهفة مرتجفة، حتى كادت أن تتجمد الدماء فى عروقه، واشتعلت كل خلجات كيانه وكأنه سقط فجأة فى باطن قبر مظلم اختطفه من يد الحياة فوق الأرض، وسلبه نور عينيه ولم يترك له غير نبضات قلبه المرتعبة من هول ما شعر .

رأى مدحت يجالس رجلاً آخر الذى ما أن التقت نظرتهما حتى اشتبكا فى قيد صلب أفقد مقلتيهما القدرة على الحراك فى أى اتجاه آخر.

كانت المفاجأة مذهلة لكليهما .. لهيثم وللرجل الآخر الذى يجلس بجوار مدحت بك. وكأن للماضى رائحة اخترقت صدر هيثم لتمزق أنسجة رئتيه وتضعه على حافة الاختناق.. أو الموت.

كان الرجل هو ذاته الذى طالما تعامل معه هيثم فى الماضى لصالح مالك متجر البازار والمشغولات الأثرية التى تصورها فى بادئ الأمر أنها مقلدة . وهو ذات الرجل الذى انتهى لقاؤه به فى المرة الأخيرة إلى ما وراء قضبان السجن.

هو الماضى الظالم.. والمصير المجهول.

و.. تنبه إلى صوت مدحت وهو يناديه بلا حماس:

- اقترب يا هيثم.. ماذا عندك من مشاكل؟

تقدم نحوهما ببطء غير متعمد.. فأردف مدحت آمرًا ومتعاليًا:

- اجلس.. وأخبرنى بما لديك بإيجاز.. فأنا مشغول الآن.

وقبل أن يتفوه هيثم بحرف واحد.. تدخل الرجل الآخر قائلاً بفتور:

- كيف حالك يا هيثم.. هل أصبحت تتعامل لحسابك الخاص الآن؟ .. و..

التفت تجاه مدحت وقال متساءلاً بنبرة فيها الكثير من العتاب:

- لم أكن أعرف أن لديك عملاء غيرى يا مدحت بك.

افترشت الدهشة ملامح مدحت.. وأجاب بصدق:

- ماذا تقصد يا سليم؟!

تدلت ابتسامة ساخرة على طرف شفتى سليم.. ثم قال متهكمًا:

- اسمح لى يا مدحت بك.. فبعد أن عرفت الحقيقة الآن فأنا لن أستطع أن أتعامل معك بعد اليوم.. وأرجوك لا تلومنى.. فأنت بتصرفك هذا أصبحت مثيرًا للشبهات.. وأنا لست على استعداد للدخول إلى السجن بسبب طموحاتك فى التعامل مع أكثر من مصدر.

انفلتت صيحة منزعجة من مدحت وهو يقول بغضب:

- ماذا تقول يا رجل.. فأنا لا أفهم بالفعل مقصدك؟!

ازدادت حدة سليم وأجاب بجرأة :

- أنت تراوغنى وكأنك ترانى أمامك طفل صغير.. هذا عار عليك يا رجل .. و..

عاد يلتفت نحو هيثم.. واستطرد قائلاً بتبجح :

- ها هو هيثم أمامك.. اسأله وسيخبرك بأنه تلميذ بالنسبة لى وكنت أنا المصدر للرجل الذى كان يعمل عنده.. ثم تأتى أنت وتضعه فى نفس مستواى وتتعامل معه بدلاً منى.

تساءل مدحت بثورة مكبوتة.. وهو يتوجه بالحديث إلى هيثم:

- ما هى القصة يا هيثم؟

انتفض هيثم صامتًا، وكأنه ابتلع لسانه وتحرك للانصراف وصوت سليم يخترق أذنيه وهو يلاحق مدحت قائلاً :

- سأخبرك أنا بالقصة إذا كنت حقًا لا تعلمها.

و.. مرة ثانية يجد نفسه وسط جموع الغرباء.. وحيدًا.

إلى أين ..؟

لم يعد يدرى على أى طريق يخطو، وإلى أى اتجاه يسير.

اختل توازن وجدانه وأصبح فى لحظة مجرد كيان مضطرب،

لا يستطع تحديد معالمه. مجرد شتات لمشاعر مبهمة ما بين الخوف والثورة، لا يدرى إن كان ناقمًا أم مقهورًا.. ظالمًا أم مظلومًا، كل شيء من حوله تحول إلى فراغ لا وجود له. لا حقيقة ولا باطل.. لا صوت ولا صدى.

ما أقسى أن يتآمر الماضى مع الواقع، وكأنهما اتفقا على ألا يفلت من عذابهما ، ماض لا ذنب له فيه وحاضر لا يرغب أن يستبقيه!!

كانت صدمته أعظم من أن يبحث عن نتائجها أو عن أسبابها. اعتراه الفتور. بل ابتلعه، وكأنه تخلص من عقله حتى لا يلهث وراء أفكاره.. الهول كله والمصيبة الكبرى فى فقدانه لصورة چيهان الملائكية وقدرتها على تقمص حالة غير حقيقتها التى كان يتمناها، ولم يتح له القدر فرصة الاحتفاظ بها.

همس إلى نفسه :

.. صدق الفجور، وصدقت فايزة.

.. كذبت البراءة وانتحر الخير بالسم البشرى.

أدرك أن خفافيش النور أكثر شراسة من خفافيش الظلام.

لا فرق بين أنياب التماسيح وبين لدغات العقارب، كلاهما طريقًا للموت. لا فرق بين إرهاصات الماضى ونبضات الواقع فكليهما أيضًا يؤدى إلى الدمار فإلى أين يذهب.. وإلى من يستصرخ؟!!

عاد إلى الباخرة.

فكر فى أن يلملم حوائجه ويرحل.. أن يحطم زجاج «قمرته» ويقفز فى النيل لعله يغتسل من ماضيه وحاضره.. لعله يتمكن من الانتحار!!

ولكنه تخلص من غيبوبة أفكاره الشاردة بلا إرادة، عندما انتبه لصوت طرقات خفيفة على الباب.

فوجىء بمدحت بك يقف أمامه بنفس أساريره وملامحه الجليدية.. الذى قال بتربص :

- أنت بمفردك .. أم عندك أحد بالغرفة.

أفسح هيثم له الطريق إلى الداخل دون أن يحرك شفتيه.. فدخل مستطردًا:

- أنت إذن قصة كبيرة يا ...

والتفت إليه وهو يجلس.. وأكمل متساءلاً :

- لا أعرف بماذا أناديك.. بهيثم بك.. أم بالمعلم هيثم.. أو بالزعيم أو الريس هيثم.

ظل هيثم على حالته الصامتة، بينما حاول مدحت أن يكون ودودًا وهو يقول:

- أشهد بالله بأنك السبب فى أننى اكتشفت كم أنا غبي.. ومغرور أيضًا.

- يا مدحت بك .. أنا.

ولكنه قاطعه بلطف قائلاً :

- اخرجنى من ذهولى أرجوك.. وأجبنى على سؤالين فقط لكى أعود إلى رشدى.

همس بترقب :

- أنا تحت أمرك .

قال بحزم :

- كيف استطعت ارتداء قناع البراءة والسذاجة طوال تلك الفترة الماضية بيننا.. ولماذا ارتضيت لنفسك مهنة بسيطة كهذه وأنت فى الواقع من كبار المهربين فى مصر وربما فى العالم أيضًا.. أرجوك أجبنى قبل أن ينفجر عقلى.

وبنبرة صادقة، أجاب هيثم آملاً فى اقناعه :

- صدقنى يا مدحت بك.. أنا لا هذا ولا ذاك.. أنا إنسان بسيط ظلمته الليالى وكنت أبحث لنفسى عن ..

قاطعه من جديد.. وقال بغيظ مكتوم :

- كفى.. ولا تستهزئ بعقلى أكثر من ذلك.. دعنا نتحدث بوضوح ونتعامل بأوراق مكشوفة.. الأمر لا يحتمل المراوغة.

لم يستطع هيثم التماسك أكثر من ذلك، وجلس وكأنه بنيان ينهار بالتدريج ثم نظر إليه بتوسل وإحباط.. وقال بصعوبة واضحة:

- أرشدنى حضرتك.. ما هى الطريقة التى يمكننى بها أن أقنعك بصدقى؟

تقلصت عروق عنقه، واشتعلت بشرة وجهه بعد أن اندفعت الدماء بقوة إلى رأسه.. وقال وهو يضغط على فكيه بأسنانه:

- أنت إذن تريدنى أن أكشف لك أوراقى أولاً.. لا بأس. و..

صمت لعدة لحظات وهو ينظر إليه بعينين جاحظتين.. ثم استرسل قائلاً:

- من البداية يجب أن تعرف أنه بسببك قد فقدت المورد الوحيد لى.. وهو سليم.. ثانيًا أنا مرتبط بتعاقدات دولية ومحلية من المستحيل التنصل منها.. وكل ما أملك من ثروة أو بواخر وأيضًا شركة السياحة الخاصة بچيهان كل هذا مرتبط بتنفيذ تلك الصفقات.. وثالثًا وهو الأهم أن من يدير هذه الصفقات هم رجال المافيا ولن نفلت جميعًا من دمارهم الشامل لنا. فالمسألة إذن ليست بالبساطة التى تحاول أنت أن توهم نفسك بها. ومن الأفضل أن نبحث سويًا عن مخرج مناسب للأزمة التى تسببت أنت فيها بسبب ظهورك فى حياتى.

تساءل بلهفة غير واعية:

- چيهان هانم على علم بكل هذا؟!

أجاب بحسم :

- هى متورطة فى الأمر بأى شكل من الأشكال.. سواء إن كانت تعلم أو لا تعلم.

قال مستسلمًا:

- وما المطلوب منى؟!

لاحقه بارتياح :

- أن تقدر حقيقة الموقف.. وأن تقوم بالدور الذى كان يتولاه سليم.. و..

تمهل قليلاً فى التفكير لعدة لحظات ثم أردف قائلاً:

- وأنا موافق مقدمًا على كل شروطكم.. ولكن.. قبل أن تتخذ قرارك يجب أن تضع فى حساباتك أن الأمر لن ينتهى بإفشاء حقيقة ماضيك أمام الجميع فقط.. بل ستكون نهايتك مؤلمة على أيدى من تسببت فى إرباك صفقاتهم.. بما فيهم أنا شخصيًا.

وقبل أن يجيبه بحرف واحد، فوجىء به ينهض بإصرار وعزم وتوجه فى طريقه للانصراف من الغرفة.. ثم التفت إليه قائلاً بغضب:

- فكر فى الأمر جيدًا.. ولا تثير غضب الجميع.

وتركه إلى خارج الغرفة دون أن ينتظر منه أى كلمة.

بينما ظل هيثم فى مكانه دون حراك أو بلا قدرة على الحراك.



7

كان صباحًا ربيعيًا وبديعًا.

كل شىء فيه بدا مشرقًا.. آملاً ومتأملاً.. الأشجار مورقة، والزهور بألوانها ونضارها. الشمس حانية ومشرقة بأشعتها المتفائلة. النسيم هادئ. ووجوه البشر مطمئنة.

لم يصدق شوكت فهمى نفسه، عندما اتصلت به آمال حلمى تستدعيه إلى فيلتها بعد ما أخبرته بسفر زوجها إلى الخارج.

لأول مرة منذ فترة طويلة لم يراوده إحساس بأنها تدبر له مكيدة أو تضمر له سوءًا. شعر بنبرة صوتها مستغيثة به، وكأنها تطلب مساندته إيذاء موقف ما تورطت فيه أو فشلت فى مواجهته.

ولهذا لم يتردد.. وأسرع إليها وهو يحمل بين أضلعه شهامة العاشق. وبمجرد أن شاهدته أمامها داخل الڤيلا.. بادرته بتودد ولهفة غريبة.

- أنا فى حاجة إليك يا شوكت.

أجاب دون تلكؤ :

- وأنا رهن إشارتك.. ولكن أخبرينى أولاً ما الذى يزعجك هكذا؟!

تناولت كف يده.. وأجلسته بجانبها.. ثم قالت:

- مصيبة.. مصيبة يا شوكت.. لم تكن على البال.

- يا أمال لا داعى للغموض.. وأخبرينى ماذا فى الأمر؟!

و.. أخبرته بكل شىء.. وما دار بينها وبين زوجها من حوار أفصح فيه عن أمور كثيرة لم تكن تتوقعها، وكشف عن نواياه وعن مشاعره الحقيقية تجاهها.

تحركت أشجان شوكت وهو يرى أمامه امرأة الماضى التى كان يتهمها بصلابة المشاعر وجفاء الوجدان، رآها مهتزة ومضطربة.. بل وضعيفة أيضًا. رأى الكبرياء يتزلزل فى لحظة وهن، والغطرسة تذوب فى لحظة إستجداء لم يعتد عليه معها من قبل.

همس وكأنه يحدث نفسه :

- الخائن .

أسرعت تردد مؤكدة على همسته :

- نعم الخائن.. تصور بعد طول هذه العشرة معه، وبعد أن ساندته فى رحلة مشاريعه وأعماله، اكتشفت أنه متزوج من أخرى دون علمى.. وأيضًا كشف عن نواياه فى أن يجردنى من حقوقى وممتلكاتى.. هذا اللص النصاب.

قال وهو يطيب خاطرها:

- اهدأى يا حبيبتى اهدأى.. ودعينا نفكر فى الأمر بعقلانية.

فاجأته بابتسامة أنثوية رقيقة تسللت فوق شفتيها .. ثم قالت:

- أعدتنى إلى الماضى الجميل يا شوكت.. فمنذ سنوات طويلة لم أسمع منك كلمة يا حبيبتى.. بالفعل يا ليت فى مقدرة الإنسان أن يعيد كل ذكرياته التى طواها النسيان.

أجاب بمشاعر صادقة:

- الذكريات الجميلة لا تموت.. ولكننا نحن الذين نغدر بها .. ونحاول أ ن نقبرها.

قالت فى نبرة مستسلمة :

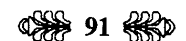
- ماذا سنفعل يا شوكت؟.. الحيرة تكاد تقتلنى.

وما كاد أن يتفوه بكلمة، حتى استوقفته بإشارة من يدها .. ورددت هامسة:

- اصمت الآن.. فأنا لم أعد أثق فيه وقد يكون قد ترك لنا من يتلصص علينا من الخدم.. تعال معى.

و.. أخذته بل سحبته إلى غرفتها، وهو يسير بجانبها كالمسحور بلا تردد وأحكمت غلق الباب.. ثم دعته إلى الجلوس بجانبها على طرف الفراش.. وقالت:

- الآن يمكننا أن نتحدث بأمان.



- اطلبى منه الانفصال.

أفلتت منها صيحة منزعجة.. قائلة :

- لا .. مستحيل.. ذلك سيمنحه فرصة تنفيذ أهدافه.

قال فى لحظة شهامة غير متوقعة :

- لا تهتمى بالاتفاق الذى كان بيننا.

قالت بدلال مستكين :

- يا شوكت أنا كنت أعلم أن تهديدك لى غير حقيقى.. لعنة الله على الغيرة هى التى كانت تأكل قلبك.

ارتاح لذلك التبرير.. وعاد يقول:

- نعم هذه هى الحقيقة .

نهضت من جانبه.. وسارت بضعة خطوات بلا هدف.. ثم رددت قائلة :

- أريد الانتقام لنفسى.. أريد أن أدمره .

لحق بها.. وقال باهتمام :

- إذن .. يجب أن نفوت عليه الفرصة ونباغته .

تساءلت بلهفة :

- كيف؟!

- نقتله.

التفتت نحوه مذعورة :

- ماذا قلت؟.. نقتله.. أهذا ما تفتق إليه ذهنك.. وكيف؟!!

عاد إلى جلسته الأولى .. ثم نظر إليها بتركيز.. وقال:

- نحن أصبحنا نعيش فى واقع مختلفًا تمامًا عن واقع ماضينا.. اليوم أصبح الحوار من طرف واحد فقط.. الحوار من حق الأقوى.. لم تعد للمشاعر قيمة ولا للمبادئ وجود، ولا انتماء لأى شىء.. صيحة العصر هى يا قاتل أو يا مقتول.

اقتربت منه بهدوء كالأفعى :

- فى الحقيقة تلك هى رغبتى التى كنت أشعر بها.. ولكنى لم افهمها.. ولم ترد على خاطرى قط.. وكأننى أبحث عن مبرر قوى دون أن أعلم.

- المبرر الوحيد.. هو الفارق بين اليوم والأمس، وبين الحاضر والماضى.

و.. تولى هو قيادتها هذه المرة وأجلسها بنفسه إلى جواره.. ثم استطرد قائلاً بجدية :

- كل شىء اختلف من حولنا.. المعانى نفسها لم تعد تعبر عن مفهومها.. انظرى كيف كان الحب فى زماننا، وكيف أصبح معناه الآن.. المحب كان على استعداد أن يضحى بنفسه فى سبيل من يعشقه، واليوم بات يضحى به من أجل نفسه. انظرى

كيف كان موقفنا أنا وأنتِ فى الماضى، عندما ضحينا بكل شىء من أجل أن نحمى حبنا وأن نعيش معًا. و..

أسقط نظره إلى الأرض.. وعاد يسترسل بنبرة حزينة:

- تركنا أهلنا.. وحياتنا الاجتماعية وإقامتنا.. تركنا كل شىء لنصبح آمنين بعيدًا عن كل ما يتسبب فى فراقنا.. تذكرى كم تحملنا من عذابات وكتمنا فى صدورنا الآهات.. تذكرى المقابل الذى دفعناه والقهر الذى تذوقناه.

كل هذا من أجل حبنا.. من أجل عشقنا.. من..

و.. توقف الكلام.

وفاحت من جديد رائحة الخطيئة العفنة، لتعبق المكان بدنس الرذيلة وأنفاس الشيطان الذى أظلهما برعايته.

مجرد دقائق قليلة ماجنة وفاجرة احتوتهما تحت ستار الخيانة.. ثم أطلقت سراحهما ورحلت.

وعاد كل شىء إلى سابق تلك الدقائق.

وفى هدوء مثير قالت:

- من الأفضل أن تتصرف الآن قبل أن يلاحظ أحد تواجدك هنا.. ودعنا نفكر مليًا فى الأمر.

قال وهو ينهض ببطء:



- وإذا لم نجد وسيلة أخرى.

أجابت بجمود :

- سيكون ذلك حكم القدر .

ربت على كتفها برفق.. ثم قال:

- الآن فقط.. تأكدت أننى أقف أمام أمال حلمى التى كنت أحبها.

وأسرع منصرفًا فى طريقه إلى خارج الفيلا.

وبدأت الأمانى تدغدغ مشاعره من جديد.. شعر بخطواته ثابتة وبقامته مستقيمة ورئتيه أكثر اتساعًا.. حلم الثراء راح يقذف إلى خاطره صور الحياة الرغدة والمترفة.. صدق أوهامه وأخذ ينظر للوجوه التى من حوله بتعال وكبرياء السفهاء.

ولأول مرة يشعر بقيمة الزمن، كانت الأيام تمضى وهو يتابع لياليها وساعاتها. أصبح ينتظر شروق الشمس ويراقب رحيل الليل وهو يتأهب لاستقبال حياته الجديدة والسعيدة.

حاول أن يتناسى الواقع.. ولكن واقعه تعمد ألا ينساه!!

عندما لاحظ تواجد هيثم دائمًا فى المنزل، وتصور أن داء الانطواء قد أصابه من جديد. فألح عليه لأول مرة فى حياته معه أن يعرف سبب عزلته الجديدة، واضطر هيثم لأن يخبره بما حدث فى آخر رحلة له، كان ينصت إليه باهتمام غير معتاد. و..



أذهلته المفاجأة عندما اختتم كلماته قائلاً:

- لذا أنا قررت عدم الذهاب مرة ثانية للشركة.. وسأبحث عن عمل آخر.

التفت نحوه بغضب محموم وقال:

- أنت جننت بكل تأكيد.. كيف تترك مالك بعد أن واتتك تلك الفرصة الذهبية؟!

أجاب بهمسة مصحوبة بالدهشة :

- مالى!!

لاحقه قائلاً:

- نعم مالك.. فمن الطبيعى أن تكون أموالى هى أموالك.. و..

صمت لحظة، ثم مسح جبهته بأطراف أصابعه وكأنه تذكر فجأة مسؤلية الأبوة وأردف قائلاً :

- المفترض هذا.. أليس أنت ابنى الوحيد الذى تحمل اسمى!

أجابه بفتور :

- وما دخلك أنت فى أموال الآخرين.. ومن أين لك هذا الحق؟

قال بثقة :

- سبق وأن قلت لك أن بينى وبين أمال حلمى مصالح سابقة.. ثم إننى لا أستبعد أن تكون هى وزوجها شركاءً للمدعو مدحت فى تجارة الآثار.

شرد هيثم بذهنه بعيدًا عن واقعه، مما دفع شوكت أن يسأله باهتمام:

- فيما تفكر.. ألا ترتاح لهذا الظن!

التفت إليه فى وجوم.. ثم قال بنبرة حائرة :

- أفكر فيك.. وفى السر الغامض الذى يربطك بتلك الأسرة.

عاد إلى لامبالاته، وقال بلا اكتراث:

- هذا ليس شأنك.. المهم عندى ألا تكون أبلهًا فى تصرفاتك.

استتفزته كلمات أبيه، فقال بلا تردد:

- على كل حال هذا قرارى ولن أتراجع عنه.

قال بتهكم وسخرية:

- منذ متى وأنت صاحب قرار.. طوال عمرك وأنت تترك الظروف هى التى تحدد مصيرك.. كانت كل إمكانياتك هى أن تعتزل الآخرين وتجلس فى غرفتك كالمعتوه نادبًا حظك العثر.. لقد حان الوقت لكى أوضح لك صورتك الحقيقية أمام الآخرين.. ولولا أننى استطعت تدبير لك هذا العمل وتلك الظروف لما تجرأت علىّ وأن تعارضنى وتحاول أن تفهم أشياء أكبر من مستواك الفكرى.. و..

سكت برهة ازدرد فيها ريقه ثم أردف:

- أنت تجهل الحياة التى نعيشها، وإذا لم تستمع إلى نصائحى سوف تندم كثيرًا.

وفى اللحظة التى كاد فيها هيثم أن يعبر عن ثورته، حتى ابتلع رغبته أمام مفاجأة صوت طرقات شديدة على الباب الخارجى مع أصوات متداخلة كثيرة تصيح بعنف مرددة:

.. افتح الباب.. افتح الباب.

تسمر شوكت فى مكانه كالمشلول من شدة المفاجأة، بينما تحرك هيثم بخطى متعثرة نحو الباب وفتحه، ليفاجئ بمجموعة من ضباط المباحث والمعاونين لهم يقتحمون الشقة وأمطروه بالأسئلة التى ألجمت لسانه :

.. أنت هيثم شوكت فهمى.

.. أين أخبأت النقود التى سرقتها.

والتفت أحدهم آمرًا بحزم :

- فتشوا المكان .

وبصعوبة بالغة تحركت شفاه شوكت متساءلاً :

- ماذا فى الأمر يا حضرة الضابط؟!

قال أحدهم دون أن يلتفت إليه:

- ابنك متهم بسرقة مبلغ خمسين ألف دولار من خزينة الباخرة التى يعمل عليها.

صاح هيثم مرتعبًا:

- أنا..

لاحقه الضابط قائلاً :

- لدى بلاغ ضدك من صاحب الباخرة السيد/ مدحت حمدى بأنك سرقت المبلغ من خزينة الباخرة.. وتقدم عدة أشخاص من العاملين بأنهم رأوك فى آخر رحلة وأنت تحوم حول غرفة الخزينة.

وقبل أن يتفوه هيثم بحرف واحد، فوجىء بالضابط يأمرهم بلا تردد:

- احضروه إلى القسم لاستكمال التحقيق.

وفى لحظات كان هيثم محاصرًا بالرجال، بعضهم يدفعه أمامهم بقوة والبعض الآخر يشل حركة يديه. بينما توجه كبيرهم إلى شوكت قائلاً :

- لا تبتعد كثيرًا عن منزلك.. فقد نحتاجك فى بعض الأسئلة.. و.. فربما تكون شريكًا له أيضًا.

وانصرف الجميع بنفس سرعة ظهورهم.

بينما ظل شوكت فى مكانه مشدوهًا وكأنه فى كابوس شرس. ولم يستطع غير أن يتمتم فى همس قائلاً:

.. ألم أقل لك أنك ستندم كثيرًا يا أبله.

8

ما قيمة الحق إذا كان الباطل أقوى.

وما أوهن شعارات القيم إذا ما تهاونت أمام إمكانات الظلم وانهيار الذمم.

تساؤلات مريرة غاصت فى أعماق هيثم وهو يجتر انكساره وسط سيل الاتهامات التى كانت تحاصره من المحققين بدافع أن كل الشبهات تصب عنده بمفرده.

وكانت الضربة الأقسى عندما تلقى مكالمة هاتفية مجهولة المصدر تخبره بأن الأمر يمكن معالجته سريعًا فى حالة موافقته على إتمام الصفقة التى طالبه بها مدحت حمدى.

وكانت المفاجأة الأشرس فى وقعها عليه، عندما فوجىء بچيهان تطلب مقابلته بعد أن سمح لها ضابط المباحث بذلك قبل أن يتم ترحيله إلى النيابة العامة.

وفى لحظة شجن، كادت أن تستصرخ الكون كله.. همست إليه بنبرة ملؤها الحيرة والحزن:

- لماذا يا هيثم ؟!!

شعر بأحرف كلماته تمزق حنجرته الجافة وهو يقول باقتضاب:

- أخبرى مدحت.. أننى موافق!!

تأملته بدهشة حقيقية.. وعادت تتساءل فى حيرة:

- لا أفهم.. وعلى أى شىء أنت موافق؟!

رمقها بنظرة متشككة.. ثم همس بنبرة ذابلة:

- لا وقت للاستفسار.. إذا كنت لا تدرين حقًا!

وقبل أن تعود لتساؤلاتها.. لاحقها مستطردًا:

- من فضلك أخبريه فقط بموافقتى. و..

تحول عنها منصرفًا إلى محبسه الاحتياطى.

وكأنها كلمة السر.. أو تعويذة السحر. التى فتحت كل الأبواب، وطرحت كل الحلول. حيث تم سحب الاتهام من مدحت بدعوى أنه وجد المبلغ فى قاع الخزينة وأعلنت براءة المتهم. مع تقديم خالص الاعتذارات!!

لم يندهش عندما وجد چيهان فى انتظاره بسيارتها. واندلف جالسًا بجوارها صامتًا ومستسلمًا دون تعليق.

وبعد عدة أمتار التفتت إليه قائلة بتوجس:

- لا أعتقد أنه من المناسب الآن أن نتحدث فى أى موضوع.. فمن الأفضل أن أذهب بك إلى منزلك.. على أن نلتقى فيما بعد.

أومأ برأسه موافقًا، والظنون تعبث فى صدره وهو صامت فى تعمد ألا تلتقى نظرته بعينيها.

ثلاث ليال وهو قابع فى غرفته، وقد توقف الزمن فيها بالنسبة إليه. لا فرق عنده بين الليل والنهار بل لم يكن فى مقدوره أن يعرف ذلك.. لا شىء يمنحه الإحساس بأنه لا يزال حيًا غير إحساسه بالمرارة والقهر.

أدرك أنه فى صراع غير متكافئ مع واقعه، ولا سبيل أمامه سوى الاستسلام للمصير المجهول.

قبل المخاطرة مضطرًا وهو لا يدرى كيف سيقتحمها.. طرح اختيارًا لا يملك اتخاذ القرار فيه. مجرد لحظة فرار لا يدرك منتهاها أو نتائجها.. الفرار من أجل الفرار فقط.

وبإحساس العاجز أبدى موافقته دون تلكؤ لمقابلة چيهان عندما طلبت لقاءه فى أحد الفنادق بعيدًا عن أعين الآخرين.

ذهب إليها وهو مرتعبًا ومتشككًا، بائسًا ونادمًا.. فكره مضطربًا وحائرًا لا يعرف كيف سيخبرها بأنه بالفعل لا يملك الوسيلة فى تجارة الآثار، وأيضًا ماذا ستكون النتيجة بصفتها أحد أعضاء الشبكة وقد تكون هى على قمة ذلك التشكيل العصابى.

المصير مظلم.. والأمل مفقود!!

تقدم نحوها بخطوات هزيلة، وهى تجلس فى أحد أركان بهو الفندق المتفق عليه.

و.. جلس أمامها منكس الرأس، ذليل النفس.

وفى براءة مثيرة.. قالت:

- حضرت لأستمع إليك.

رمقها بنظرة زائغة، ثم عاد يطأطئ رأسه صامتًا.. فأردفت:

- من حقى أن أعرف الحقيقة.. وصمتك هذا يؤرقنى.

قال بصعوبة وتوجس:

- وهل حقًا لا تعرفينها؟!

- يراودنى إحساس بأنك متشكك فى أمر يخصنى.

أجاب بنبرة حذرة:

- وبماذا يفيد تشككى.. وأنتم أصحاب القرار والأمر.

رددت بدهشة:

- أنتم.. ماذا تقصد بهذا المعنى؟

- لا شىء.. ولكنى أقسم لك بأننى ليس فى مقدرتى تنفيذ طلباتكم.. ليس تمردًا أو فى محاولة للمساومة.. ولكنها الحقيقة أنا بالفعل لا أعرف الطريقة.. وأنا ظُلمت فى الماضى.. وها أنا أُقهر فى حاضرى.

لاحقته بانفعال صادق:

- هيثم .. أتوسل إليك أن تخبرنى بالحقيقة.

و.. أخبرها بكل شىء.

شعرت بكلماته وكأنها مخالب وحشية تنهش فى أحشائها، الذهول أصابها بدوار عنيف فبدت وكأنها تترنح أمامه من هول المفاجأة. وراحت تردد وهى مقيدة الفكر:

.. مستحيل.. مستحيل.

وهو يواصل سرده لقصة حياته بأكملها، بعدما انتابه إحساس بالأمان نحوها. ومنحه شعوره بصدقها إحساسًا بالجرأة والثقة وأفرغ أمامها ما فى أعماقه من مشاعر الظلم والألم، وكأنه تحين الفرصة لكى يبث شكواه لأحد آخر غير ذاته.

ولكنه اضطر للتوقف عن الحديث، عندما أسكتته قطرات دمعها التى انسابت من بين جفنيها فى صمت.

وبادرها برفق:

- دموعك هذه أقسى علىّ من كل عذابات الماضى.

حاولت أن تتمالك قبل أن تجيبه قائلة :

- لم أكن أتصور أن فى الدنيا نفوس بشعة إلى هذه الدرجة.

ولأول مرة منذ زمن بعيد تستطيع ابتسامة أن تقفز فوق شفتيه وأجاب من خلالها قائلاً:

- الآن فقط فى إمكانى مواجهة أى قوة شريرة تحاول اعتراض طريقنا.

همست بحنان :

- أنا .. وأنت .

أسرع قائلاً بحماس حقيقى:

- بل من أجلك أنتِ.. فأنا على استعداد للتصدى لكل شياطين الدنيا ومجرميها.. فلم أعد أخشى شيئًا ويكفينى وجودك بجانبى.

قالت بود دافئ:

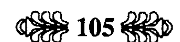
- لن أنسى فضلك علىّ.. فأنت أنقذتنى من كارثة حقيقية كادت تدمر مستقبلى ظلمًا.. و..

غابت فى لحظة شرود، وافترشت ملامحها أسارير الكآبة بشكل مفاجئ مما دفعه لأن يبادرها قائلاً :

- أنا آسف لم أكن أقصد ولا كنت أتمنى أن أكون سببًا فى إيذاء مشاعر الحب التى تربطك بمدحت.

لاحقته بإنزعاج :

- لا تفهم خطئ.. فأنا أفكر كيف سنتخلص من هذه المشكلة .. وأخشى أن يكون ذلك الوغد قد ورطنى فى أمور دون علمى.



ـ يخف سعادته وهو يعلق قائلاً :

- لا تخشى شيئًا.. فأنا سأتدبر الأمر بمعرفتى.. و..

صمت لحظة.. ثم استطرد وهو يتأمل عينيها قائلاً:

- إلا إذا كنتِ لا تثقين بى!

ترقرقت على شفتيها إبتسامة هادئة.. وأجابت:

- استفتى قلبك .

قال بصدق شديد:

- قلبى بات غير محايدًا.. لأنه أصبح ملكك.

نهضت بعد أن طفرت إلى بشرة وجهها حُمرة الخجل.. وقالت بدلال:

- وأنا لن أسمح له بأن يفلت من سطوتى إلى الأبد.

وقف بتلكؤ وكأنه لا يريد انصرافها.. ثم قال برضى:

- عليك بالانصراف أولاً.. على الأقل مؤقتًا.

برقت عيناها وكأنها تضمه بين جفونها.. ثم استدارت منصرفة.

كان فراقًا سعيدًا!!

احتوتهما لحظة واحدة فى عمر الزمن، أتت بهما فى لقاء متوتر وتعيس ثم فرقت بينهما فى فراق ودود وسعيد.

إنه الأمل.. بوابة الحياة وروعة الوجود.

لحظة الزمن التى يخرج من رحمها شروق الشمس لتشع دفئًا على جزء من الدنيا وهى نفس اللحظة التى تخيم بظلامها على الجزء الآخر. لحظة الزمن التى يسطع قمرها ليملأ جانبًا من الأرض ضياءًا مرتميًا فى أحضان الليل فى حما الكواكب والنجوم، وهى اللحظة ذاتها التى تفرد ذراعيها لتضم فجر يوم جديد على الجانب الآخر من الوجود.

هنا أمل. وهناك ندم.

والندم كان فى لقاء شوكت فهمى بآمال حلمى عندما فوجئ بها تأتيه إلى منزله لأول مرة فى لحظة فاض الكيل فيها عند كليهما.

لم تأخذه الدهشة، بقدر ما سحبته خواطره الشيطانية بأنها أتت لتخبره بانتهاء مهمتها المتفق عليها.

ولكن سرعان ما تبددت إرهاصات التمنى، عندما لاحظ شحوب وجهها وبؤس نظراتها الصامتة.. و..

تساءل بنبرة متوجسة ومتحفزة :

- هل انتهى الأمر؟

أجابت بانكسار قبل أن تجلس :

- نعم .. ولكن على غير توقعنا .

وراحت تسرد عليه أخبارها بكلمات شعر بها وكأنها طلقات من اللهيب أخذت تتراشق فى كل جزء من كيانه الواهن.

وهى تخبـره بأن زوجها كان يرصد تحركاتهما من خلال العاملين فى الڤيلا وبأنه ألغى جميع التوكيلات التى منحها لها فى السابق، وسلبها كل ما تملك بعد أن واجهها بحقيقة أمرها بأنها لا تصلح كزوجة كما كانت لا تصلح كأم، وبأنه غادر البلاد ولا تعرف إذا ما كان سيعود أو لا. و..

وانفجرت لحظة العدم.. اشتعلت براكين الدنيا فى صدره، وتمردت أحشاؤه فى ثورة على جسده الذى أنهكته تجاعيد الزمن. كاد أن يتقيأ دمًا وتتمزق حنجرته من شدة صراخه وانفعالاته هدد، وتوعد، وأمطرها بأبشع الأوصاف وأسوء المعانى. اتهمها بأنها اتفقت مع زوجها ودبرا هذه الحيلة لكى يتخلصا منه.. من ماضيها الأسود وحاضرها اللعين.

صرخ متلعثمًا من قسوة الانفعال :

- أتظنان أنكما أذكى من شوكت فهمى.. لقد كان لدى إحساس بأنكما من فصيلة واحدة.. عصابة تختفى وراء أرستقراطية الحضيض.

لقد أخطأتى يا فاجرة لأنك لم تفهميه قدرى.. سأدمرك.. وأدمره سأنال منكما قبل أن تنفذا فكرتكما الدنيئة. سيكون مصيرك السجن ومصيره الفضيحة والضياع.. و..

وراح يقذفها بكل ما تصل إليه يده.. وهو يصيح بهستريا عنيفة:

- اغربي عن وجهي.. اغربى عن وجهى وسترى ما يمكن أن يفعله شوكت فهمى يا لقيطة الطرقات.

وغربت عن وجهه.. ولكنها لم تغرب عن أعماقه الثائرة.

ظل طوال الليل ينتقل من غرفة إلى أخرى.. لم يلحظ غياب هيثم كعادته أو كعادتهما فى طبيعة العلاقة الغريبة التى تجمع بينهما كأب وابن.

بدا كالفهد الأسود وهو يزحف بخطاه لينقض على فريسته.. هو أيضًا كان يغربل خواطره باحثًا عن أبشع وسيلة للانتقام.

أصبح الانتقام غايته وليس الرغبة فى المال.. وكأن قد واتته الفرصة لكى يشفى غليله من الماضى ومن الدنيا التى لم تستجب لطموحاته المشروعة وغير المشروعة.

أمال حلمى تحولت فى نظره إلى تجسيد مكثف لكل خطاياه، وكأنه يرغب فى التكفير عنها بعد فوات الأوان والعمر أيضًا.

لا يريد أن يقتلها، فالقتل قد يريحها وهو لا يرغب فى ذلك.. يريدها تتذوق مرارة العذاب فى حياتها وفى ذكراها، تمامًا كما تقلب هو فوق أسنة الفقر والاحتياج وتلوى من صراعات وإحباطات حياته، وكذلك حاضره البائس.

وهداه تفكيره الحاقد إلى الوسيلة.

وكانت وسيلته هى ابنتها چيهان التى قرر أن يذهب إليها. ومع إشراقة الصباح التالى وبعد أن حدد التوقيت المناسب لتواجدها بالشركة، وعندما تأكد من ذلك اقتحم مكتبها بجرأة وبادرها قائلاً وهو يضغط بقوة على فكيه :

- أنتِ إذن الضلع الثالث فى العصابة!!

نظرت إليه فى فزع بعد أن أخذتها المفاجأة إلى الاضطراب الشديد.

ولم ينتظر رد فعلها فاستطرد قائلاً :

- إذا كنت تدعين عدم معرفتك بى.. فأنا والد هيثم.. و..

قبل أن تتماسك فى محاولة للترحيب به.. أردف مواصلاً كلماته:

- هيثم فريستك الجديدة، التى تصورتى أنه صيد سهل لأعمالك الإجرامية.

أفلتت منها صيحة منزعجة.. وتساءلت فى ذهول:

- ماذا تقول .. وماذا تقصد حضرتك؟!

ضحك ساخرًا فى توقيت غير مناسب للموقف.. ثم أجاب باستهزاء:

- هكذا يكتمل الثالوث.. أبوك وأمك يستغفلانى وأنتِ تدمرين ابنى من خلال تشكيلك العصابى.. يا لكم من أغبياء.

وهنا لم تتمالك چيهان صبرها أكثر من ذلك، ونهضت من وراء مكتبها صارخة بعنف:

- كـفـى يا رجل.. لابد وأنك مـصـاب بالهـذيان أو تخـاريف شيخوختك.. أنا لا أسمح لك بأن تطاول على الشرفاء مثلنا.. مهما كانت مكانتك.. ولن يشفع لك أنك والد هيثم.. و..

قاطعها بتهكم مرددًا:

- شـرفـاء.. يا للعـجب.. ابنة أمـال حلمى تتحـدث عن الشـرف والشرفاء.

انهارت مقاومة تماسكها وصاحت:

- اخرس يا معتوه.. وانصرف فورًا قبل أن أستدعى من يلقوا بك على قارعة الطريقة.

صمت لعدة لحظات وهو يتأملها بنظرة قـاسيـة ومتبـجحـة، وكـأنه يراجع فى عـقله خـاطرًا قـد يكون مـحـتمـلاً.. ثم قـال بنبـرة مختلفة:

- سأفترض أنك بالفعل لا تعرفين الحقيقة.
- أى حقيقة تلك التى تتحدث عنها.

جلس بفتور وهو يشير إليها للجلوس.. قائلاً:

- اجلسى.. وسأخبرك بالحقيقة.. لعلك صادقة فيما تدعين!!

و.. بدأ كلماته بأحداث الماضى البعيد.

لم يدع تفصيلة صغيرة إلا وذكرها.. أعاد أمامها صورة الماضى التى لم تعشه ولم تتواجد فيه.. أخبرها بكل شىء.. بقصة الهروب وبالوليد الذى باعوه، وبليالى الرذيلة.. وبورقة الزواج العرفى.. وأخيرًا بالمفاوضات والمساومة.. والاتفاق على التخلص من أبيها.. ثم انتهى إلى قصة الغدر به. ثم سكت فجأة بعد أن أعياه الحديث الطويل وذكريات الماضى.. وأيضًا بعد أن لاحظ تحجر ملامحها وكأنها تمثال حجرى لا حياة فيه.

نهض بصعوبة وإعياء.. ثم همس بصوت كالصدى قائلاً قبل انصرافه:

- الآن فقط تخلصت من الأطلال الجاثمة فوق أعماقى.. ولم أعد أريد شيئًا من الحياة.. ولا أنتظر منها أن تعطينى شيئًا.

وتركها وهو يجر فى خطواته الذليلة، بعدما فشل فى التخلص من إحساسه بالهزيمة بعد كل ما قاله عن نفسه وعن الآخرين.

وما كادت تطأ قدماه الطريق، حتى أطاحت به سيارة مارقة وأسقطت جسده النحيل فى صراع مع الموت وصدى الهمسات من حوله تخترق أذنيه بصعوبة:

.. الرجل يلفظ أنفاسه الأخيرة.

.. احملوه لأقرب مستشفى.

.. يبدوا أنه توفى.

كان واعيًا لما يدور من حوله لعدة لحظات، وكأن الدنيا أرادت أن تخبره بأن ما زال لديها الكثير لكى تقدمه له.. وبأن من أهم عطاياها هى العدالة.

9

عندمـا تخـتـفى القـدوة.. تضـيع الخطـى ولا تتعـثـر.. وتتـوارى المعـالم وتتـقلص حـزنًا ويأسًـا، تطول أيادى الخطئ والخطيـئـة، وتختلط الأشياء فى غير تجانس فلا هى تبقى ولا تذوب فى بعضها.

عندما تختفى القدوة.. تتبدل المفاهيم وترحل الآمـال ويتوحش البـاطل وتكتـئب الأحـلام. تطفئ المشـاعل ويسـود الظلام، وتبكى المبادئ على أطلال ذكرياتها. وتتمرد القيم على حالها وتكاد تسخر من نفسها.

عندمـا يحـدث ذلك.. تذبل الجـذور فـتنهـار القـامـات، وتفـوح رائحـة العـفن من الزهور وترحل الفـراشـات. تصبح الوجـوه عـابسـة وتموت الابتسامات.

عندما تختفى القدوة.. يسيطر الرياء وينتحر الانتماء، وتتربص الأنفس بعضها لبعض، ويصبح الحق إدعاء والكذب ولاء.

يكون الأمل مقبرة للأحياء!!

هكذا أصبحت چيهان بعد أن فقدت قدوتها، وصُدمت فيها. لم يعد فى مقدورها أن تواجه نفسها ولا الآخرين. فآثرت الانطواء فى سجن إرادى داخل غرفتها.

أمال حلمى أدركت بفطنتها أن ابنتها قد عرفت الحقيقة، فاختارت الصمت المرير فى ترقب مذعور من غموض المصير.

ليال طويلة موحشة، راحت تمتص من نضارتها يومًا بعد يوم حتى باتت كالفرع اليابس الذى ينتظر سقوطه مع أول ريح عابرة.

انقطعت عن عملها وأغلقت هواتفها، واستسلمت لعزله الجنون أو الموت. ماذا يمكنها أن تفعل؟!

كأنها نبتة صغيرة ما كادت تتنسم نقاء الحياة، حتى هاجمتها أعاصير الطبيعة ودوامات الصحارى.

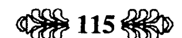
طائر جميل يغرد فرحًا وابتهاجًا بالدنيا، ويتنقل بأجنحته الرقيقة بين الأغصان وفوقها، فيجد نفسه فجأة بين مخالب صقر برى راح يمزق جسده بلا رحمة.

ماذا يمكنها أن تفعل!!

وهى ترى الهامات العملاقة تتهاوى فى خزى وانكسار.. والمعانى الجميلة تتحول كالحرباء إلى مضامين وهمية كسراب لا وجود له. ما أصعب أن يكتشف الإنسان أنه كان واهمًا.. وبأن كل ما حوله مجرد زيف وخداع، وبأن لا حقيقة فى حياته إلا إحساسه بالألم والحسرة. هى فقدت الأمل، وفقدت الرغبة فى البحث عنه.

ولكن.. الأمر كان مختلفًا عند هيثم شوكت.

لم يفقد الأمل، ولم يفقد الرغبة فى البحث عنه.. أو عنها.



كان سعيدًا وفخورًا بنفسه بعدما أتم مهمته التى أعادت إليه الإحساس بذاته. أعادت إليه الأمل المفقود.

أدرك أن النهر الصافى الرقراق يمكن أن يستعيد نقاءه إذا ما بترت الآيادى التى حاولت تلويثه.

وأن للقيم والمبادئ حماه أشداء وأقوى بكثير من خفافيش الكهوف مهما انتشرت وكثرت.

أدرك كل هذا بعدما تم القبض على مدحت وعصابته من خلال الكمين الذى خطط لهم عن طريق الشرطة وبالاتفاق معه.

تخلص من عار الماضى الذى ظلمه ومن مذلة الحاضر الذى قهره.

تخلص من الخوف واليأس، ومن التردد الذى لازمه طوال حياته. لم يعد هناك ما يؤرق أعماله إلا اختفاء چيهان المفاجئ. بحث عنها فى كل مكان. فى مقر إدارة شركتها، وفى الفنادق التى يمكن أن ترتادها بحكم عملها.. سافر أسوان والأقصر. سأل كل من له صلة بها.

لا أحد يعرف.. ولا أحد حاول أن يعرف!!

ويكون حكم القدر ألا يعرف إلا من خلال والده الذى يصارع الموت ما بين غيبوبته المتسلطة وصحوة هزيلة باهتة، وهو يرقد فوق فراش النهاية بالمستشفى.

وأدرك ما هو أهم وأصدق.

أن للحب قــدرة تفــوق كل تصــور، وبـأن الحب فـى إمكانه أن يواجـه شـرور الدنيـا بأكـملهـا ليـحـمى نبـضـاته من ضـربات الغـدر والخيانة. أدرك أن القوة لا تمنح، ولكنها تُستدعى.

فاستدعى شجاعته وقوته، ليدافع عن حبه وذاته.. وأمله.

وقرر الذهاب إلى چيهان فى ڤيلتها.

وبثبـات يسبقـه إصـرار عميق، سأل أحد العـاملين بالڤيـلا عن چيهان وألح بشدة فى طلب رؤيتها.

شعر وهو ينتظرها فى الحديقة، بالدقائق وكأنها عمر ثان.. أو بزمن لا نهاية له.

و.. رآها.

رأى الأمل يتـجـسـد صـورتهـا وهـى تتقـدم نحـوه بخطى ثقـيلة وكأنها تحمل أثقال الكون كله.

هـرع إليـهـا وكل خـلجـات كيـانه تنبض بلهـفـة الشـوق.. وبادرها قائلاً:

- بحـثت عنك فى كل مكان.. لم أيـأس.. لأنى كنت واثقًـا من أن القدر سوف ينصفنا ولأن كلانا فى حاجة إلى الآخر.

رفعت رأسها ببطء، ثم نظرت إليه بشرود وقالت:

- لم أتوقع رؤيتك ثانية.. فمن المؤكد أنك عرفت الحقيقة.

أجاب بسرعة:

- الحقيقة الوحيدة التى عرفتها.. أننى لا أستطع فراقك.

همست بنبرة هزيلة :

- فات الآوان يا هيثم.. فچيهان التى كنت تبحث عنها لم يعد لها وجود.

- أنتِ أمامى الآن. وأراك بقلبى قبل عينىَّ.

قالت بحزن:

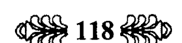
- التى أمامك هى بقايا إنسانة.. بقايا حياة.. بقايا نفايات تنتظر حرقها أو دفنها فى مقبرة العدم. و..

قاطعها بإنزعاج واضح قائلاً:

- ما هذا الهراء الذى تقولينه.. أنتى چيهان التى كنت أبحث عنها طوال حياتى دون أن أعرفها، وأنتى التى بحثت عنك بعدما التقيت بك.. وأنتى أيضًا التى سأسخر حياتى الباقية لكى أحتفظ بك.

تأملت أفرع الشجرة التى بجوارها وتساءلت :

- فى نظرك إلى أى مدى يمكن أن تحيا الأغصان بعد أن تُقتلع من جذورها.



أجاب بإصرار:

- إذا ما غُرست فى تربة صالحة.

تجاوزته بخطوتين.. ثم قالت:

- أنت واهم يا هيثم مثلما كنت أنا فى الماضى.. فأنا وأنت أصبحنا كالصيف والشتاء لن يلتقيا أبدًا.. كلانا قُدر له أن يكون مرآة لماضى الآخر.. ماضى شرس وجبار ولن يفسح مكانًا فيما بعد إلا لمن كان شبيهًا لسلالته أو عشيرته.

تقدم نحوها وأصبح فى مواجهتها، ثم قال بنبرة محبطة:

- حتى لو كنت توهمت يومًا أنك تبادلينى نفس شعورى نحوك.. فمن حقى عليك أن تنصتى لى.. و..

حاولت أن تجيب قائلة :

- أنا ..

ولكنه قاطعها واستطرد قائلاً:

- تأملى يا چيهان الحياة على حقيقتها.. فالمعانى ليست حكرًا لأحد. النجاح والسعادة والأمل كالهواء والأنهار والأمطار.. الحب والطهر والشرف كالسماء والشمس والقمر. الله سخرها لكل البشر. الذنوب لا تورث بل هى من اختيار البعض، وإلا فما ذنب اللقطاء.. و ما ذنب الأبرياء إذا ما

تعرضوا للظلم والقهر.. ما ذنب الشرفاء إذا ما تعرضوا للخيانة والغدر. ما ذنب الأمل إذا لم يجد الصدر الذى يحتضنه. و..

تناول يدها برفق.. ثم أردف قائلاً:

- ما الذنب الذى اقترفناه أنا وأنتى لكى نتحمل آثام من قبلنا؟ لماذا نقبر الحب من أجل كراهيتهم، ونغتال طموحنا من أجل بؤسهم، ونلوث طهارتنا من أجل فسادهم؟

وفى لحظة صدق، شعر بها وكأنها احتوت الزمن كله عندما فوجئ بها تلقى برأسها فوق صدره وراحت تجهش ببكاء مرير وكأنها تغتسل من كل أحزان الماضى.

لم يقو إلا على الصمت، وهو يربت على كتفها بحنان شديد ثم همس بحب دافئ.

- كفى يا حبيبتى.. فلا مجال للدموع بعد الآن.

تأملته ثوان قليلة بنظرة ملؤها العطف والهيام.. وقالت بنبرة يظللها صدى الدلال :

- إياك أن تصدق أنك كنت واهمًا.

ترقرقت ابتسامة هادئة على طرف شفتيه.. ثم أجاب:

- سأفعل يا غالية.. ولكن بشرط أن تحققى لى مطلبى الوحيد.

أسرعت متساءلة :

- ماذا هو ؟

أجاب بترقب :

- أن تأتى معى لزيارة أبى.. فهو يريد أن يراك.. بل ويتوسل لك أن تذهبى إليه.

تراجـعت بخطوة إلى الوراء وهـى ترمـقـه بذهول.. فـأسـرع مستطردًا :

- هل يمكن أن يراودك خاطرًا، بأن أفعل شىء يسىء إليك؟!

أومأت برأسها نافية.. ثم رددت:

- مستحيل يا أغلى الناس.. لأنك لن تسيئ إلى نفسك. فكلانا كيان واحد.

قال بسعادة بالغة وهو يتأبط ذراعها :

- إذن.. هيا بنا الآن.. فأمامنا بعد ذلك رحلة طويلة مع حياتنا ومستقبلنا.

و.. انطلقا بسيارتها فى اتجاه المستشفى.

كان سعيدًا. لأنه استطاع أن يخرجها من عزلتها كما فعلت هى معه فى الماضى. أنقذها كما أنقذته من دوامات اليأس والإحباط.

وكأن الأقدار أرادت أن تربط مصائرهما بحياة واحدة، ومستقبل مشترك.

كلاهما أعاد الآخر إلى طريق الأمل.

و.. وصلا إلى المستشفى.

لحظة تجسدت فيها أصدق معانى الحقيقة.

الحقيقة التى قد تغيب عن أذهان البعض عمدًا أو جهلاً. عندما تختال الأنفس بقدرتها وتلعب بها الظنون بأنها قادرة على فرض سلطانها وتحقيق رغباتها فى الوقت الذى تريده وتحدده.

اللحظة التى طالما أفصحت عن نفسها فى كل الأزمنة والعصور، ولطالما أيضًا عانت من تكبر الغرور وغطرسة الشهوات وغيبوبة الوهم والسراب.

كان شوكت فهمى يغوص فى فراشه بلا حول ولا قوة.. جسد جاف كالمومياء، مغمض العينين وقد صبغت بشرته بلون رمال الصحراء.

انحنى هيثم ليقترب كثيرًا من ذلك الكيان الذابل.. وقال بصوت مسموع:

- جيهان معى.. هل تسمعنى، جاءت كما أردت!

وبصعوبة بالغة ومعاناة أشد، تحركت شفتى الرجل المتشققة وكأنها جزء من سطح أصم يتعرض لزلزال يشطر بعضًا منه.

حاول أن يفتح أحد جفنيه لعله يرى.. أو كان يأمل ذلك.

وبصوت ضعيف كالصدى الآتى من أعماق سحيقة.. قال هامسًا:

- سامحينى يا ابنتى.. أنا الآن فى لحظة لا تقبل إلا الحقيقة والصدق.

ازدرد ريقه وكأنه يتوسل لزفرة الموت أن تمهله قليلاً.. ثم أردف:

- لقد أخطأنا وحان موعد سداد جزاء الخطيئة.. نحن التعساء وأنتما الأبرياء ولا ذنب لكما فيما اقترفناه.. أنتما لآلئ المستقبل. واللآلئ تظل قيمتها فى نفسها مهما تراكمت فوقها القاذورات وتلال الوحل.

أرهقته الكلمات فصمت مضطرًا، وعاد هيثم يقترب منه قائلاً:

- نحن سنرحل الآن.. هل ترغب فى شىء آخر؟!!

همس وكأنه يحدث نفسه:

- وأنا أيضًا.

انصرفا دون تعليق.

وعند الباب الخارجى للمستشفى. توقفت چيهان أمام باب السيارة وقالت بحماس:

- ما رأيك يا هيثم؟.. أنا أفكر فى افتتاح فرع جديد للشركة فى مرسى مطروح أو فى شرم الشيخ.

أسرع يقول وهو يقف عند الجانب المقابل لها:

- أنا أفكر فى مشروع أهم.. حددت له مدة أسبوع لدراسته.. على الأقل يكون والدك عاد من السفر.

أجابت بتلقائية:

- مثل هذه المشاريع المهمة التى تقصدها لا تحتمل الانتظار لمدة أسبوع.. وأنا يمكننى اتخاذ القرار فيها الآن .. وفورًا.

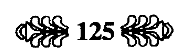
و.. اشتركا فى ابتسامة تشع البهجة والأمل، قبل أن يندلفا إلى داخل السيارة وينطلقا بها.

تمـت

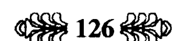
أحمد فريد

الإصدارات الروائية للأديب أحمد فريد

همسة وداع	نشرت في ليبيا	1972
الشك	نشرت في ليبيا	1973
خطوات بلا طريق	نشرت في ليبيا	1975
نبضات لا تموت	مطبعة النهضة بالقاهرة	1976
الحب وحده لا يكفي	دار غريب بالقاهرة	1980
ممر الذئاب – ثلاثة أجزاء		
دعني أحاول	دار غريب بالقاهرة	1982
عندما يبكي الرجال	دار غريب بالقاهرة	1983
لا تدمرني معك	دار غريب بالقاهرة	1984
يا صديقي كم تساوي	دار غريب بالقاهرة	1985
لن تسرق حبي	دار غريب بالقاهرة	1987
سامحني يا حب	دار غريب بالقاهرة	1990
الحب الكبير- ثلاثة أجزاء		
هو منتهى الحب	دار قباء بالقاهرة	1994
عمر عمري	دار قباء بالقاهرة	2001
كذبت عليك فصدقني	دار قباء بالقاهرة	2002
يا أنا لا ترحل عني	دار قباء بالقاهرة	2004
حب بلا مأوى	دار قباء بالقاهرة	2005
الحب بعد المساومة	دار قباء بالقاهرة	2006



- دار قباء أعادت طبع جميع الأعمال الروائية.
- حصل على جائزة مهرجان القاهرة السينمائى عام 1982 عن أحسن قصة لفيلم «الحب وحده .. لا يكفى».. إخراج على عبدالخالق .
- ترجمة رواية«الحب.. وحده.. لا يكفى» ورواية «عندما يبكى.. الرجال» إلى اللغة الصينية.
- تمت ترجمة رواية «هو منتهى الحب» إلى الإنجليزية.
- صدرت الطبعة الثالثة من رواية «هو منتهى الحب» فى كتاب الجمهورية (الأعمال التى تحولت إلى أفلام سينمائية).
- « الحب وحده .. لا يكفى ».. إخراج على عبد الخالق - سيناريو وحوار «مصطفى محرم».
- « عندما يبكى .. الرجال» .. إخراج حسام الدين مصطفى.. سيناريوم «مصطفى محرم» وحوار «بهجت قمر».
- « لا تدمرنى معك» إخراج محمد عبد العزيز .. سيناريو وحوار «أحمد صالح».
- «يا صديقى كم تساوى».. إخراج يوسف فرنسيس .. سيناريو وحوار «يوسف فرنسيس».



- عضو اتحاد الكتاب منذ بدايته.

- عضو نادى القصة .

- عضو الجمعية المصرية لكتاب ونقاد السينما.

- عضو رابطة الأدب الحديث.